وليم شكسبير

مختارات من حكاياته المسرحية

تقديم وإعداد

محمود جمال

الكتاب: وليم شكسبير (مختارات من حكاياته المسرحية)
تقديم وإعداد: محمود جمال
الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
شكسبير، وليم
وليم شكسبير.. مختارات من حكاياته المسرحية، تقديم وإعداد/ محمود جمال
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٤٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٦ – ٥٤٥ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ١٣٨٠١ / ٢٠٢٢

وليم شكسبير

مختارات من حكاياته المسرحية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

"وليم شكسبير..حكايات المسرحيات" كتاب يستهدف القارىء العربي الشاب الذي لم تتح له فرصة قراءة أعمال شكسبير مترجمة إلى العربية، ليكون بابا إلى هذا العالم السحري يدفعه إلى القراءة والمعرفة. هذه القِصصِ بمنزلةِ حافزٍ لهم للمُضيّ قُدمًا وقراءةِ الأعمالِ الأصليةِ العظيمةِ لشكسبير.

يضم هذا الكتاب ملخصا سرديا لعدد من أجملِ وأروعِ أعمال «شكسبير» المؤلفِ المسرحيِّ الأعظمِ على مرِّ العصور. وتتراوحُ الأعمالُ بين التراجيديات العظيمة، مثل "يوليوس قيصر" والأعمالِ الرومانسيةِ مثل "روميو وجولييت" والكوميديا الأخفِّ من ناحيةِ الطابع مثل «حُلم ليلة منتصف الصيف» وقد عرضَتِ قصص تلك المسرحيات على نحوٍ جذَّابٍ للغاية، وبأسلوبٍ بسيطٍ يُمكّنُ القُراءَ الصغارَ والكبارَ على حدٍّ سواءٍ من الاستمتاعِ بها.

* * *

وليام شكسبير، هو كاتب مسرحي إنجليزي (تاريخ ميلاده مجهول) وتوفي في ستراتفورد في الثالث والعشرين من أبريل من عام ١٦١٦وقد توفي أبوه قبله في عام ١٦٠٢، وكذلك أمه في عام ١٦٠٨ وعاشت زوجتُه حتى أغسطس من عام ١٦٢٣.

وقد توفي ابنه هامنت في عام ١٥٩٦ عن عمر يناهز الحادية عشرة. وعاشت ابنتاه بعد وفاته، وقد تزوجت كبراهما "سوزانا" في عام ١٦٠٧ من طبيب من ستراتفورد يدعى دكتور هول. والابنة الوحيدة الناتجة عن هذه الزيجة والتي كانت تُدعى إليزابيث، والتي ولدت في عام ١٦٠٨، تزوجت في البداية من توماس ناسبي، ثم من السير جون بارنارد، لكنها لم تُنجب في أي من الزواجين.

أما ابنة شكسبير الصغرى "جوديث" فقد تزوجت في العاشر من فبراير عام ١٦١٦ من نبيل من ستراتفورد يدعى توماس كويني، وأنجبَت منه ثلاثة أبناء، وقد تُوفي جميعهم دون أن يتركوا أي ذرية. ولذا، لا يوجد أي سليل مباشر لشكسبير.

استمرّ وليام شكسبير في الكتابة حتى عام ١٦١٣م، وهو العام الذي كتبَ فيه آخر مسرحيتين له، ثمّ عادَ إلى ستراتفورد معلناً بذلك تقاعده، وقد توفيَ عن عمرٍ يناهز ٥٢ عاماً، وذلك يوم ٢٣ من شهر نيسان عام ١٦١٦م، ودفنَ في مسقطِ رأسه ستراتفورد أبون آفون، إذ وضعَ جثمانه في مذبحِ الهيكل لكنيسةِ الثالوث المقدس التي كانَ له حصةً فيها، وذلك لأنّه اشترى العُشر من تلكَ الكنيسة مقابل مبلغ كبير من المال، وبالنسبة لزوجة شكسبير آن هاثواي فظلّت إلى جانب زوجها حتى آخر أيّام حياته، ووضعت عائلته على الحائط الأقرب من قبره تمثالاً نصفيّاً له يشابه هيئته وهو في وضعيّة الكتابة.

وقد وُصفت كتابات شكسبير بأنها «الأكثر ثراءً ونقاءً وروعة من

تأليف عبقريةٍ لم يُنزل عليها وحي، وليس لها مثيل على مر العصور.»

ومما قيل عنه أنه كان يُعلم قُرَّاءه عن طريق إسعادهم، إذ تحتوي مسرحياته على حكمة حقيقية، فقيل إنه معلم لكلِّ أشكال الفضائل؛ الرحمة، والكرم، والشجاعة الحقيقية، والحب. لقد تشكَّلت براعته المُضيئة «على هيئة نجوم صغيرة». وتجسَّدت معارفه الغزيرة العميقة عبر عبارات مَرِحة وأمثال شعبية واقعية، ولا يوجد اليوم في العالم المتحدث بالإنجليزية ركن لم يُنزْه هو بضيائه أو كوخ لم يُثرِهِ بعلمه. إن عطاءه يُشبه البحر، نحس به في كل مكان حولنا، رغم كوننا لا نعترف له بالفضل. وكما قال عنه صديقه بن جونسون، «إنه ليس ابنًا لعصر معيَّن وإنما لكل العصور».

وقد أحصى مؤرخو المسرح عدد الروايات التي كُتِبت بالإنجليزية للتمثيل في السنوات العشرين بين سنتي ١٥٨٦–١٦٠٦ فبلغ نحو مائة وخمسين رواية، مستمدة من التاريخ المعروف بين أدباء الإنجليز عند نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن الذي تلاه، وقد حدث هذا في تلك الفترة، خاصة لأنها كانت فترة تاريخية تهم التاريخ وتهتم بالتاريخ؛ إذ هي فترة اليقظة الوطنية في الجزر البريطانية، بلغت حماسة القوم فيها لتاريخهم ومعالم حياتهم الغابرة والحاضرة غايتها على أثر الشعور بالخطر من جانب الدول الكبرى في القارة، وأعظمها يومئذ إسبانيا وفرنسا، وزادهم النصر حماسة على حماسة فنشطوا لإحياء تراثهم الغابر، وأقبلوا على كتابة التاريخ وجمع أسانيده وتمثيل مشاهده إقبالًا لم يكن معهودًا بينهم قبل ذلك، ولعلهم لم يعهدوا له نظيرًا بعد القرن السابع عشر إلى القرن العشرين.

ويحدد الكاتب الكبير عباس محمود العقاد في كتابه "التعريف بشكسبير" مصادر الإبداع عند شكسبير في ثلاثة مصادر: مصادر التاريخ، ومصادر المأساة، ومصادر الملهاة.

فمصادر الروايات المستمدة من تاريخ الجزر البريطانية تكاد تنحصر في مصدر واحد، وهو الموسوعة التاريخية التي شرع الناشر ريجنالد وولف في إعدادها وتبويبها للإحاطة بأخبار العالم القديم والحديث، ثم مات قبل إتمام العدة لها، فلم يظهر منها غير أجزاء خاصة بالجزر البريطانية، أهمها ما كُتِب بقلم هولنشد، وعليه كان تعويل شكسبير في سلسلة رواياته التاريخية.

على أنه كان يرجع أحيانًا إلى مصادر من المسرحيات التي كُتِبت قبل تمثيل مسرحياته كرواية «عهد الملك جون المضطرب» التي لم تُنسَب إلى مؤلف معروف، ويتعمد الشاعر في اختيار مصادره من هذا القبيل أن يحيي الموضوعات التي تصلح للعرض على المسرح ولكنها لم تمثل لنقص في التأليف وإعداد مناظر التمثيل. وقد كانت سير بلوتارك أهم المراجع في رواياته الرومانية، ولكنها لم تكن مرجعه الوحيد فيها ولا في غيرها، فإنه كان يتمم النادرة الواحدة من مرجعين أو أكثر كلما وجد لها مزيدًا من التفصيل في المراجع الأخرى، ومن أمثلة ذلك نادرة المعدة والأعضاء في رواية كريولينس، فإنه استوفاها من بلوتارك وأضاف إليها تفصيلًا آخر من كتاب البقايا الذي لخص فيه المؤرخ وليام كامدن تواريخه المطولة.

أما المآسي فيندر التحقق من جميع مصادرها، ويكثر التردد فيها بين المظان المشتركة من كتب مطبوعة وأخبار مسموعة وأساطير متناثرة يُضاف

إليها أو يُقتضَب منها، كلما تناقلها الرواة بين لغة ولغة أو بين أمة وأمة.

وأقرب المصادر التي اقتبس منها شكسبير رواية "روميو وجولييت" قصة شعرية للأديب الإنجليزي أرثر بروك (توفي سنة) **١٥٦٣** مستمدة من القصص الإيطالية التي ظهرت بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر، ومنها قصة لماسشو وقصة للويجي دي بورتو وقصة لباندلو وقصة لبويستيو، وهو المرجع الذي اعتمد عليه بروك في أكثر فصول قصيدته، وقد كان للقصة مرجع إنجليزي آخر في عهد شكسبير هو كتاب وليام بينتر المسمى "قصر المسرات"، وفيه جمع الكاتب طرائف منوعة من الأقاصيص والأخبار الإيطالية الحديثة والرومانية القديمة.

محمود جمال

حلم ليلة صيف

جرت العادة في أثينا القديمة، كما جرت في غيرها، على أن يكون الرأي في تزويج الفتاة واختيار قرينها، لأبيها عميد الأسرة، وشيخ العشيرة، وكان في أثينا كذلك قانون يجيز للوالد إذا شاء قتل ابنته إذا هي أبت الزوج الذي اختاره لها.

وحدث في الوقت الذي ابتدأت فيه هذه القصة أن كان الدوق ثييوس أمير أثينا وحاكمها يوشك أن يتزوج بهيبوليتا ملكة الأمازون – النساء المحاربات في العصور القديمة– وكان الدوق في شغل بإعداد معدات الاحتفال بهذا الزواج وألوان القصف والفرح واللهو التي تجتمع فيه، فجاءه شيخ من أهل المدينة يسعى وكان يدعى "إيجيوس" يرفع إليه شكاة له من أمر ابنته "هرميا" أبت القران بالزوج الذي اختاره لها، وهو فتى يدعى "ديمتريوس" بدعوى أنها لا تحس له حبا، وإنما تحب شاباً غيره يدعى "ليساندر" يبادلها الحب ولكن إيجيوس أبى أن يحفل بهذه الحجة أو يستمع لهذا الشفيع وراح يطالب بأحد أمرين، إما الزواج "بديمتريوس" وإما الموت طبقاً للقانون..

فجعل الدوق يذكر هرميا بواجب الطاعة لأبيا ولكنها أبت الإذعان لنصحه والتسليم بحجته، فقد كانت تحب غيره، كما احتجت بأنه قد ظفر بحب هيلانة صديقتها، فليقترن بها.

وكان الدوق أرحم من القانون فحكم في هذه القضية بأن تمتثل هرميا للقران من ديمتريوس أو تقضي بقية العمر في دير بعيدة من بيت أهليها مقصية عن صاحبها، في معزل عن العالم الخارجي وأهله.

ولم يكن قد بقى على احتفال الدوق بزواجه سوى أربعة أيام فأمهلت هرميا تلك الأيام الأربعة ريثما تعلن جوابها.

فذهبت هرميا إلى حبيبها ليساندر من فرط بلواها، ترجو عنده العون والسلوة، فراحا يرسمان معاً خطة للفرار من قسوة أبيها وجفوة القانون..

وكان لليساندر عمة غنية وهي أرملة لم ترزق بنين، وتقيم بموضع على مسيرة عشرين ميلا أو قرابتها من أثينا، لا تمتد إليه سطوة قوانينها فقال ليساندر لحبيبته: "في وسعنا أن نذهب إلى بيتها فنقترن هناك فإذا حل ليل الغد فتسللي من دار أبيك وخذي الطريق إلى تلك الغابة المعهودة التي طالما لعبنا عندها ورتعنا في أيام الطفولة، وهي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال من المدينة فهناك سألقاك".

وبينما كانا يدبران الأمر على هذه الصورة ويفكران في إعداد الخطة إذ وافتها (هيلانة) وكانت صديقة هرميا الحميمة وخليلتها الأمينة فكاشفاها بخطتهما، ولكن هيلانة بدلا من أن تحتفظ بسرهما راحت في حماقة تبوح به لديمتريوس لأنها تحبه، وقد فعلت ذلك على أمل أن يلحق ديمتريوس بخطيبته هرميا في الغابة، فتذهب هي فتلتمسه فيها.

وكانت الغابة التي سيذهب إليها أولئك الأربعة مغشي الجان

ومسكنها المحبوب. فيه تقيم ملاعبها في منتصف الليل، وترتع في مسالكه ومنافسه.

ولكن حدث منذ قريب أن خلافاً شجر بين ملكها أوبيرون وملكتها تيتانيا. فأفسد عليها مزاجها، وأحال إلى أحزان أفراحها، وجعلها من الخوف تبادر إلى الاختباء كلما قام الشجار بينهما وجرى النزاع.

وكان سبب الخلاف غلاما صغيراً عزيزاً كانت الملكة قد سرقته من مرضعته عقب وفاة أمه وكانت هذه صديقتها، فجاءت تيتانيا به إلى الغابة ليكون وصيفاً لها، فأراد أو بيرون أن يتخذ الغلام لنفسه ولكن تيتانيا أبت أن تتخلى عنه له.

ففي الليلة التي كان العاشقان سيجتمعان فيها عند الغابة اتفق أن تلاقي الملك والملكة في حاشيتهما من الجنيات والجان، فعادا يشتجران على الغلام وطفق أوبيرن يحاول إقناع تيتانيا بتسليم الغلام إليه ولكنها أبت الاستماع إلى حججه ولم تستجب لشفائعه فافترقا مدة أخرى على غير تراض، وراح أوبيرون يرسم خطة لحملها بالأذى والتعذيب على إطاعة رغباته.

ولتحقيق هذه الغاية دعا إليه عفريتا من الجن معروفا بالمرح والنزوع إلى الشر والأذى، يدعوه الجن "بك" أوروبين الأليف. وكان من عادته أن يجد السرور في ابتكار سائر أفانين العبث والدعابات العملية للعبث بالقروبين السذج والفلاحين البسطاء فيروح يحيل لبنهم خاثراً أو ينزع القشدة عن سطحه أو يقلب مقعد عجوز وهي تهم بالجلوس عليه ونحو

ذلك من ضروب المجانة وصنوف العبث. واعتاد أن يقضي طلبات أوبيرون وحمل رسائله.

فلما مثل بين يديه ناداه قائلا: أقبل يا بك واستمع لما أريد. أذهب فأتني بالزهرة التي يسميها العذارى "الحب بلا عناء".

وكان عصير هذه الزهرة الصغيرة الأرجوانية إذا قطر منه على جفني النائم يورثه فجأة عند اليقظة الحب لأول شيء يفتح عليه عينيه.

واسترسل أوبيرون في قوله: "وذلك لأني أريد أن أسكب قطرات من عصير هذه الزهرة على جفني زوجتي تيتانيا وهي نائمة، على أن يكون أول ما تقع منها العين عندما تستيقظ قرداً غليظاً سمجا أو نسناسا دائب الحركة لأنها ستحب أول مخلوق تفتح عينيها على مشهده، وأن يكن ليثا أو دبا وسأحملها، قبل أن أزيل هذا السحر بسحر آخر أعرفه على تسليم ذلك الغلام ليكون لي وصيفا.

فانطلق "بك" يتلمس الزهرة المطلوبة إذ كان هذا النوع من المهمات والمشاوير هو الذي يجد المتعة فيه والسرور منه.

وفيما كان أوبيرون يرتقب عودته إذ دخل الغابة ديمتريوس ليبحث عن هرميا وجاءت في أثره هيلانة تلتمسه، فجعل أوبيرون يراقبهما ويتسمع على حديثهما، إذ كان في إمكانه أن يتمثل للناس بشراً سويا.فسمع ديمتريوس يؤنب هيلانة على اقتفاء خطواته قائلا: لست أحبك فلا تتبعيني فانصرفي ولا تعودي من الآن إلى اقتفاء أثري.

فجعلت هيلانة تذكره في رفق بأنه كان فيما مضى قد باح لها بالحب وكيف أنها على الرغم من جفوته قد أقامت على حبه وأنها سوف تتبعه سواء أراد أو لم يرد فغضب ديمتريوس وتولى هاربا منها بين الأدغال وهو يؤمل أن لا تتبعه إليها ولكنها انبعثت مع ذلك في أثره تشق بين الشجر طريقها مطاردته.

ورآها أوبيرون وهي تختلف بين ألفاف الشجر في الغابة فتولته الشفقة عليها في بلواها وصحت منه النية على مساعدتها واعتزم أن يستخدم رقية الحب التي عهد إلى العفريت "بك" أن يوافيه بها ليجعل ديمتريوس يقع في حب هيلانة.

ولذلك حين عاد "بك" إليه بالرقية المنشودة قال له: "اذهب ابحث خلال هذه الأيكة تجد غادة أثينية تحب فتى مزهوا عليها مستخفا بحبها فأقطر من عصير هذه الزهرة على عينيه، واعمل على أن يكون أول وجه يفتح عليه ناظريه هو وجه تلك الغادة، وستعرف الرجل من الهندام الأثيني والذي يلوح عليه".

فانطلق "بك" لتنفيذ هذه المهمة الجديدة. ولكن أوبيرون كان قد أحتفظ ببعض عصير الغرام الذي أحضره العفريت إليه فراح يفتقد تيتانيا ويبحث عنها، وإن لم تشهده، وهي تعين لجنياتها خدماتهن الليلية، فمنهن من يستحضرن أجنحة الخفافيش ليصطنعن منها أردية لهن، وأخريات يقتلن السوس والآفات التي في أكمام الورد، وبعضهن لطرد البومة وإبعاد نعيبها، في أثناء نوم تيتانيا ووسنها، وأبقت بعضهن بجانبها ليغنينها غناء رفيقاً حتى بأخذ الكرى بمعاقد جفنيها.

ولما هبطت تيتانيا وادي الكرى تسلل أوبيريون إليها فعصر برفق الزهرة فوق جفنيها الوسنانين وهو يقول. "ما تشهدين حين تستيقظين، هو فعلا الذي تحبين".

وتركها وانصرف.

والآن نسأل: ماذا صنع القدر بهرميا وليساندر طيلة هذه الفترة، لأن ديمتريوس وهيلانة إنما قدما إلى الغابة بسبب الخطة التي كانا قد دبراها للاجتماع فيها؟

وصلت هرميا إلى الغابة كما كان الاتفاق فتلاقت فيها وليساندر ليأخذها إلى دار عمته ولكنهما ضلا وسط الآكام طريقهما وما لبث الإعياء أن أدرك هرميا فلم تستطع مواصلة المسير وإنما تهالكت على جسر هناك يكسوه العشب اللين بينما رقد ليساندر فوق الثرى عن كثب منها.

وضرب الله على آذانهما فذهبا في ثبات عميق. وأتى عليهما العفريت. "بك" في ذلك الموضع بعد البحث عنهما في خلال الغابة وآجامها، وهو المتلهف على تنفيذ أوامر أوبيرون ومشيئته.

وكان ليساندر مرتديا ثيابا أثينية وهرميا النائمة عن كتب منه من عذارى أثينا وبناتها، فأدرك "بك" بالطبع أن هذين هما الفتاة والفتى المستخف المتكبر الذي أنفذه مولاه للبحث عنه فبادر إلى سكب عصير الغرام على جفني ليساندر وانصرف مسرعا.

ولو كانت عينا ليساندر وقعتا على هرميا حين استيقظ لكان أحب

التي هو لها محب، فما في ذلك من بأس، ولكن اتفق أن أدرك التعب هيلانة وهي تطارد ديمتريوس وتلاحقه فوقفت عن المسير بالموضع الذي كان ليساندر وهرميا نائمين عنده، ورقدت فوق جسر غير بعيد من ليساندر فلم تبصره لأن الظلام كان سائدا والحلكة مخيمة، وهكذا كان أول نظرة له حين استيقظ قد استقرت عليها. بل هكذا جعلته رقية السحر ينسى حبه لهرميا ويذهب فجأة حبه لهيلانة بدلا منها.

ولكنها حين بدأ يكلمها بلغة الحب ويتحدث إليها حديث الود والحنان ظنت أنه يهزأ بها إذ كانت تعلم أنه حبيب هرميا لا حبيبها، فتألمت وغضبت مما خالته هزؤاً وتراءى لها سخرية، وانطلقت عنه مبتعدة، ولكنه ذهب في إثرها تاركا هرميا وحدها.

فلما استيقظت هذه بعد لحظة مفزوعة مروعة من أثر حلم أليم رأته في نومها وأرسلت عينيها فيما حولها تبحث عن ليساندر ونحن تاركون لك أن تتصور مبلغ الدهشة التي استولت عليها والألم الشديد الذي انتابها، حين بدا لها أن حبيبها قد ذهب عنها.

فتولت هائمة على وجهها في الغابة ذاهلة شاردة اللب تبحث عن ليساندر وتناديه فلا تجده ولا تسمع له صوتاً، ولا تلقي لندائها ملبياً.

وهكذا نرى العشاق الأربعة في هذه المرحلة من قصتنا أشتاتاً متفرقين في أرجاء مختلفة من الغابة. فهيلانة الحزينة تبحث عن ديمتريوس، وليساندر يفتش الغاب عن هيلانة، وهرميا تفتقد ليساندر.

فلندعهم لحظة لنعود إلى حديث الجنيات.

لما استيقظت تيتانيا عند الفجر أول ما وقع عليه عيناها شبحا غريباً، شبحاً أدنى شبهاً إلى صورة الحمار، وهو الذي ستقع الملكة تيتانيا في حبه بفعل رقية السحر وتأثيرها.

يا للعجب! كيف اتفق هذا الأمر الغريب؟

وكان قد حدث قبل ذلك ببضعة أيام أن كان بعض العمال السذج في المدينة يعدون العدة لتمثيل رواية أمام سيسيوس في يوم عرسه، وهم بين نحاس وحائك ونساج ونجار ومن لف لفهم. وقد جاءوا باكرين في ذلك اليوم الموعود إلى الغابة للتدرب على أدوارهم في الرواية –البروفات– إذ كانوا كما هو المنتظر غير حاذقين للتمثيل ولا هم من أهله، وإن كانوا قد اهتموا له واتخذوا الأمر جداً.

وبينما كانوا يتمرنون على أدوارهم في الغابة إذ أقبل المفريت (بك) للعبث بهم بإيحاء من أوبيرون بلا شك وإشارته، وانثنى يضع على رأس النساج "بوتوم"، وكان أمجنهم جميعاً وأشدهم تهريجاً قناعاً على صورة رأس حمار فما أن رأى رفقاؤه هذا المنظر حتى أشفقوا من هذا السحر فولوا الأدبار.

وكان هذا هو الشبح المضحك البعيد كل البعد عن صور الجان وأشكالها الذي وقع عليه ناظر الملكة تيتانيا عند يقظتها.

وكذلك تواتى لأوبيرون الانتقام من تيتانيا بجعلها تحب حماراً..

واستنشدته فأنشدها وبدت لها أناشيده الخلية من النغم، السقيمة لا طرب فيها، شجية عذبة الأعاريد، وأمرت وصيفاتها بأن يحضرن له مناً وتوتا ويلبين جميع حاجاته وينفذن كافة مشتهياته بل راحت بيديها تصطنع إكليلا من الزهر فوضعته فوق رأسه أو رأس الحمار الذي يتراءى به وتناغيه بأغاني الجان لينام على أنغامها..

وبينما هي على هذه الحال تتلطف لهذا المخلوق المثير للسخرية وتدلله جاء أوبيرون يؤنبها على هذا المسلك المعيب الذي لا يخلق بجنية مثلها، فاستحيت واستشعرت الذلة والخجلة حتى لم تتردد في تسليم الغلام الغر الذي كان سبب ما جرى بينهما من شجار ونزاع طويل.

ولما قضى أوبيرون على هذا النحو حاجته، وحقق غايته، أزال عنها تأثير السحر بعشب آخر. فما لبث النساج (بوتوم) أن بدا لها سمجاً بقدر ما كان يلوح لها جميلا غريب الجمال حين أحبته.

وعند ذلك ترك الجان ذلك المسكين يتلمس طريقه عائداً إلى رفقائه الحقيقيين، وهو في ذهول ودهشة من هذا الحادث الغريب الذي يشبه الأحلام!..

* * *

والآن فلنرجع إلى ما كان من عشاقنا الآدميين فنجد هنا أيضاً خطأ وقع ويحتاج إلى من يعالجه وذلك أن العفريت (بك) –كما تذكر– كان قد أخطأ فسكب عصير الغرام على عيني ليساندر فتحول الحب في فؤاده إلى

هيلانة وكان من قبل لهرميا. بينما كان أوبيرون يقصد أن يكون السحر لديمتريوس حتى يبادل هيلانة الحب..

والآن نقول إن هرميا حين ذهبت على وجهها في الغابة تفتقد ليساندر الذي تولى عنها، أتت مصادفة على ديمتريوس وسمعها أوبيرون وهي تتحدث إليه بعنف وقسوة متهمة إياه بأنه هو الذي سلبها ليساندر، وتطالبه برده إليها..

أما ديمتريوس فلم يدر ماذا يصنع إزاء اتهامها فتركها لتواصل بحثها وحدها..

واعتزم أوبيرون أن يصلح ما أفسد من علاقة العاشقين فأنفذ العفريت "بك" إلى هيلانة ليعود بها إلى الموضع الذي كان ديمتريوس نائماً عنده. وراح هو بنفسه يقطر من عصير الغرام على جفني ديمتريوس حتى يرى هيلانة أول من يرى عند يقظته فيحبها..

وبذلك يسعد العشاق الأربعة، فيهنأ ليساندر بهرميا، وينعم ديمتريوس بهيلانة.. ولكن هذه النهاية السعيدة لم يكن قد حان بعد أوانها، إذ كان ثم خطأ آخر موشكا أن يقع.

ولعلك تذكر أن ليساندر كان قد وقع فجأة في حب هيلانة بفعل السحر الذي مسه. وطفق يعلن حبه لها وهي لا تصدقه ظناً منها أنه يدعى الحب ليسخر منها ويهزأ بها.

واتفق أن وصلا إلى الموضع الذي كان ديمتريوس وهرميا نائمين عنده،

فما رأى ديمتريوس أول ما فتح عينيه غبر هيلانة، فراح هو كذلك من فعل السحر يتحدث إليها بلغة الحب، ويخاطبها بعبارات التغزل والصبابة، فبهتت هيلانة وشدهت، إذ لم يكن أحد من هذين الشابين من قبل يحبها، فتبادر إلى خاطرها أنهما قد اتفقا على السخرية منها والاستهزاء بها فبكت غضبي، وغضبت باكية، وأنشأت تحتج قائلة:

"يا لي من الكيد! يا لي من الجحيم، أراكما قد تشاركتما في اللهو بي، واحنيتما علي بالعبث والزراية والضحك مني والسخرية..

"ولو كنتما مهذبين وتعرفان الأدب، لما نلتما مني بهذه المساءة، وآذيتماني كل هذا الأذى..

"ولو كنتما رجلين باطناً، كما أنتما شكلا ومعرضا ومظهرا، لما عاملتما سيدة ضعيفة هكذا، تقسمان وتحلفان أنكما لصادقان في تشيبيكما بجمالي، ومديحكما المفرط لمحاسني وأفضالي، على حين أنا الواثقة أنكما لي كارهان، وفي قلبيكما من نحوي مبغضان".

ولكن ما سيلي أدهى وأنكى.

فقد دخلت إذ ذاك هرميا التي كانت بالعكس محبوبة من قبل منهما فأضحى كل منهما لا يحبها.

فأنشأت تسأل ليساندر علام هجرها ولأي داع تركها، وتولى عنها؟ فأغلظ لها في الجواب كما تولى عنها ديمتريوس، فظنت هيلانة أنهم ثلاثتهم قد تشاركوا في العبث بها واتفقوا على السخرية منها.

بينما راحت هرميا من ناحيتها تتهم هيلانة بأنها هي التي سلبت حبها، وأخذت منها حبيبها، وفيما كانت الفتاتان تشتجران وتتنازعان كان ليساندر وديمتريوس قد انتحيا جانبا لكي يحلا بحد السيف مشكلة خلافهما في حب هيلانة كل منهما يطلبها لنفسه ويدعي الحق في حبها دون سواه.

ولكن أوبيرون انتهى به التفكير أخيراً إلى تدبير خاتمة سعيدة فدعا إليه "بك" وأمره بأن يحول دون التقاء ليساندر وديمتريوس ويعمل على منعهما من المبارزة، وذلك بأن يحدث ضبابا كثيفا ثم ينثني يقلد لهجة كل منهما في حديثه مع خصمه، ويظل يهيج صدريهما بالسخرية والشتائم، ويستثيرهما بالمثالب والسباب على شرط أن يعمل على تعجيز كل منهما عن النيل من صاحبه بحسامه والتغلب عليه بسيفه، بسبب تكاثف الضباب واشتداده.

وقال له "أوبيرون": أفعل هذا حتى ينال منهما التعب، ويدركهما الإعياء فيتهالكان من فرط الجهد على الثرى ليناما، فإذا ما استولى عليهما النعاس فأقطر عصير هذه الزهرة الأخرى على عيني ليساندر فيعود إليه حبه الصادق لهرميا بينما يبقى لديمتريوس حبه لهيلانة.

وكذلك فك العفريت "بك" السحر عن ليساندر وجعل العشاق الأربعة يهيمون في الغابة حتى يهتدي إليهم في النهاية، وكل بأمر الآخر جاهل، رقودا في موضع واحد.

وكانت هرميا أول من استيقظ فوجدت حبيبها الذي فقدت حبه

نائما على مقربة منها، فعجبت له كيف غادرها ثم رجع هكذا إليها وساءلت خاطرها أترى حبه لها قد تلاشى حقا أم لا يزال باقيا.

ولما استيقظ ليساندر ثابت إليه نفسيته الأولى واستعاد حبه القديم وانشأ هو وهرميا يتحدثان عن هذه الليلة الغريبة وما جرى فيها من وقائع غرائب وأحداث عجيبة ثم إذا كل ذلك يلوح اليوم كأنه كان حلما في الكرى أليما ومناما مزعجا.

وانتهت الليلة بالنسبة لهيلانة أيضاً نهاية سعيدة، فقد صحت من نومها فوجدت حب ديمتريوس لها صادقا لا متكلفا، وحقيقة لا إدعاء، فكان ذلك تعويضا عن حبها القديم الذي طال عليه الأمد وعادت الصداقة الآن فتوثقت بين هرميا وهيلانة، بعد أن زال سبب ما كان بينهما من نزاع وخلاف غير أنه بقي حائل واحد دون سعادتهم، وهو الحكم الذي أصدره ايجيوس بأن تختار هرميابين الزواج بديمتريوس وبين الموت.

وبينما كانوا في حيرة لا يدرون ماذا هم صانعون في هذا إذ دخل الغابة الدوق سيسيوس والملكة وقد جاءا في مطلع الفجر يطلبان صيداً ويلتمسان قنصا. وكان ايجيوس في حاشيتهما ورفقتهما، فأتوا بالمصادفة على عشاقنا الأربعة فسألهم الدوق بالطبع ما خطبهم وما الذي جاء بهم إلى هذا الموضع باكرين.

فقص عليه كيف كان قد دبر هو وهرميا الاجتماع في الغابة والفرار من أثينا وقانونها القاسي الأليم. فلما سمع الشيخ ايجيوس هذا الإقرار من الفتى تقدم في الحال يطالب بتنفيذ القانون قائلا: "أرجو توقيع حكم

القانون فوق رأسه" وانثنى إلى مخاطبه قائلا: "لقد كانا يريدان فراراً، يا ديمتريوس، ويرجوان هربا. ليتغلبا علينا، ويحبطا اتفاقنا".

ولكن ديمتريوس في شيء من الحماقة بادر إل المجاهرة بأنه لم يعد يحب هيلانة. ووجد الدوق ثيسيوس أن كل فتى لفتاته موافق متكافئ، فحمل ايجيوس على التنازل عن طلبه وحدد للاحتفال بزواجهم السعيد اليوم ذاته الذي ستقام فيه حفلات عرسه ومجالي قرانه.

واشترك أوبيرون وهو في زي الجان، أو على طريقتها، في ذلك الفرح التام، ومجالي السرور والابتهاج.

وكذلك انتهت نحوس ليلة في أواسط الصيف نهاية سعيدة واختتمت أحسن ختام.

روميو وجولييت

حدث في فيرونا، إحدى مدن إيطاليا، خصام بين عشيرتين من أبذخ عشائرها مجداً، وأعرقها محتداً، عشيرة كابوليت، وعشيرة مونتاجو، وبلغت العداوة بينهما حداً جعل أفراد كل منهما وخدمهما إذا التقوا في الطريق بأفراد الأخرى والذين في خدمتها يتقاتلون، وينشب العراك بينهم ولم يكن أحد من العشيرتين يجرؤ على دخول حي العشيرة الأخرى وهو الآمن على حياته، المطمئن إلى نجاته.

وكان روميو ابن الأمير مونتاجو يحب، أو يحسبه يحب، غادة حسناء تدعى "روزالين" ولكنها لم تكن تجد له في نفسها حبا فاغتم لذلك وشق عليه إعراضها، ولبث يتحين كل فرصة للإلحاح عليها بحبه؛ واللجاجة في هواه.

وكان الشيخ "الأمير" كابوليت قد أقام مأدبة ودعا إليها كما جرت العادة كثيرات من الحسان والملاح وعديداً من شباب فيرونا وفتياتها النبلاء، ومن بينهن الحسناء "روزالين" ولكنه لم يدع إليها أحداً من عشيرة مونتاجو.

غير أن الحظ أوقع في يد روميو البيان الحاوي لأسماء المدعوين والمدعوات، إذ التقى بخادم آل كابوليت في الطريق وهو يحمل رقاع الدعوة، ولم يكن الخادم يعرف القراءة، فطلب إلى روميو وهو لا يعرفه أن يتلو الأسماء عليه.

فلما رأى روميو اسم روزالين بين الأسماء اعتزم حضور المأدبة، وإن كان أحد أفراد عشيرة مونتاجو البغيضة إلى آل كابوليت، وعلى الرغم من أنه لم يكن مدعواً، إذ هت نفسه إلى لقاء روزالين ومجالستها، كما أن ابن عمه "بنفوليو" ألح عليه في الذهاب إلى المأدبة.

وانتويا أن يذهبا إليهما معاً، ولكن متنكرين متلثمين كايلاف القوم في تلك الأيام حتى لا يعرفهما أحد.وصحبهما أيضا مركتيو أحد أقرباء أمير فيرونا، وصديق الطرفين.

ولما دخل الثلاثة الصحاب متلثمين مبالغين في التنكر، دار المأدبة، تلقاهم الأمير كابوليت الشيخ بترحاب ولم يكن يدري أن خلف هذه الرقعة وجهان من وجوه العشيرة الخصيمة له. فأقبل عليهم يرجو إليهم المرح، ويأذن لهم في اللهو، ذاكراً صنوف السرور، وألوان المراح والعبث، في أيام شبيبته، وعهود صباه، فراحوا يساهمون بحرية في متع هذه الحفلة ومباهجها الطيبة.

وعند ذلك وقع لروميو أمر عجيب. فلقد كان إلى تلك الساعة لا ينظر بعين الحب إلى حسناء غير "روزالين".

ولكنه في تلك الليلة وجد في المدعوات غادة أخرى تجتذب إعجابه وتستهوي فؤاده وتفتن لبه بعذوبة جمالها، ولطفل آدابها، ورقة شمائلها، وأحس بدافع يدفعه إلى الاختلاء بها والتحدث إليها فذهب يسأل خادما في البيت من تكون تلك الحسناء.

ومن سوء حظ روميو أن ابن أخ لكابوليت يدعى "تيبالت" سمع الكلام الذي دار بينه وبين الخادم وعرف من هو هذا المقنع وما حقيقته وخافية أمره.

وكان "تيبالت" حاد الخلق، شديد العداوة لآل مونتاجو جميعا فلم يطق صبرا على قدوم أحدهم سرا على هذه الصورة متخفيا بلثام يستر وجهه ليسخر من حفلاتهم. إذ ظن أن مجيء روميو إنما كان بدافع الرغبة في السخرية، وقصد الاستهزاء بهم والعبث وأراد أن يخلق عذراً، أو تواتيه سانحة، لكي ينقض على روميو فيقتله، ولكن الشيخ كابوليت حال بينه وبين ما أراد، وتحدث إليه عن روميو حديثاً طيباً. وأبى أن يمسه بأذى وهو ضيف في بيته. فعدل تيبالت عن نيته ولبث يترقب الظروف ويفكر ملياً في الانتقام.

ولم يدر روميو أن كلامه قد سمع وحقيقته قد عرفت، ولذلك ما كادت فرصة تلوح له حتى دنا من الحسناء التي أعجبته وأنشأ يخاطبها بكلمات رقيقة تنم عما في فؤاده، ولفظ مونق بارع يشف عما يخامره وما لبثت كلماته ونظراته أن نفذت إلى قلبها، فأجابته جوابا عذباً رقيقاً ليناً.

وبينما كانا يتعاطيان هذا الحديث العذب، إذ دعيت للذهاب إلى أمها فلبث روميو حائراً يسائل خاطره من عسى أن تكون هذه الحسناء. واستدار إلى المربية التي كانت قد نادتها فعلم من جوابها على سؤاله أنه إنما كان يتحبب إلى ابنة أمير كابوليت بالذات فاضطرب لهذا النبأ فؤاده، وانشغل باله، ولكنه أحس أنه لن يتردد في المخاطرة بحياته ليكسب حبها ويظفر بقلبها.

ولم تكن جولييت أقل منه اضطرابا حين علمت من مربيتها أن ذلك الذي نال حبها هو ابن عدو أبيها.

ولما انتصف الليل أخذ الأضياف يستأذنون في الانصراف، إلا أن روميو استطاع أن ينفلت من رفيقيه وهم منصرفون.. ويقفل راجعاً إلى المبيت الذي غادره وراح يتسلق سور البستان المحيط به، ووقف ثم شارد الفكر في هذا الحب الجديد الذي وقع له، وإنه لكذلك إذ ظهرت جولييت عند الشرفة المفتحة في مخدعها القائم من فوق رأسه فلم تبصر بادئ الرأي حبيبها، ولكنها جعلت بحزن تردد اسمه وتتأسف على أنه من عشيرة مونتاجو التي تبغضها عشيرتها ويمقتها أهلها، وسمع روميو مناجتها وهو في موقفه هذا وأدرك من كلماتها أنها تبادله الحب فأنشأ يجيب عليها بمثلها، فتنازع جولييت عاملان، عامل الرغبة في الإمساك به وإبقائه بقربها، وعامل الخوف على حياته إن هي احتجزته خشية أن ينكشف الأمر.

وبينما كانا يتحدثان مخافتين متهامسين إذ خرق سمع جولييت صوت مربيتها تطلب إليها أن تأوي إلى مرقدها لأن الليل قد جاوز منتصفه، ولكن جولييت وجدت مع ذلك اللحظة من الوقت لتعد فيها روميو قبل أن يهم بالانصراف أنها موسلة إليه من الغداة رسولا ومعينة في رسالتها إليه لزواجهما موعداً إذ شعرت بأنها سوف لا تترد في مغادرة بيت أبيها وتسليم نفسها ومصيرها لذمة روميو وعهده وأمانته.

وعلى هذا افترقا. ولكن روميو لم يذهب إلى داره وإنما رأى أن يلتمس النصيحة عند مشير أمين، وناصح صادق، وهو الراهب لورنس

الكاهن، وكان الراهب الصالح قد استيقظ كعادته في مطالع الفجر وخرج إلى بستانه يقطف الزهر ويلتقط الأعشاب.

ووصل روميو وهو ماض في ذلك، وكان الراهب يعزه إعزاز الوالد لولده، فأدرك من نظراته. في تلك الساعة. أنه جاء لأمر ذي بال. وشأن ذي خطر، ولكنه ظن باعثه حب روميو لروزالين.

فلما نبأه روميو بما جرى في ليلته، وقص عليه ما دار بينه وبين جولييت لم يوافق الراهب بادئ الرأي على تقلبه في هواه وتحوله في حبه، ولكنه تأثر بحديث الفتى وجده في لهجته، وأمل أن يكون زواج كهذا ومصاهرة بين العشيرتين المتباغضتين المتحاسدتين ما يرأب الصدع. ويصلح ذات البين، ويزيل العداوة بينهما والبغضاء، فاستسلم لرجائه واستخار لطلبته ووعده إذا ها قدما إليه أن يعقد لهما عقد القران، ولذلك حين بعثت جولييت إلى روميو رسولا كما وعدته لتسأله أن يعين وقت لقائهما أرسل يبلغا في جوابه بنبأ قبول الراهب لورنس إجراء مراسيم قرانهما.

وفي الموعد المضروب تلاقيا فتولى القاضي الصالح عقد قرانهما ودعا الله أن يجعل زواجهما سببا في استتباب السلام بين العشيرتين.

ورجعت جولييت عقب انتهاء صيغة القران إل دار أهلها وترقبت بصبر نافذ مجيء روميو إليها، إذ كان قد اتفق معها على الساعة التي يجتمع فيها بها في البستان ليرحل بها ولكن قسوة الأقدار حالت دون ذلك كما سنرى.

* * *

ولما أوشك الظهر أن يؤذن غداة اليوم التالي، كان صديقا روميو، بنفوليو ومركتيو يسيران في شوارع فيرونا وإذا بهما يلتقيان بجماعة من آل كابوليت وعلى رأسهم تيبالت ابن أخي الشيخ عميد العشيرة، وكان تيبالت هذا هو بذاته الذي عرف روميو ليلة المأدبة وأراد حينذاك قتله.

ولم يكن مركتيو بالذي يمت إلى هذه العشيرة أو تلك ولكنه كان صديقاً فحسب لروميو وهو من آل مونتاجو فتقدم تيبالت نحوه واتهمه بصداقته وصلته به فأجاب جوابا خشناً وقال له قولا غليظاً، فتدخل بنفوليو بينهما ليحسم النزاع الذي أوشك أن يقوم بينهما ولكن تيبالت استل حسامه وهم بقتاله، لولا أن مر بهم في تلك اللحظة روميو بالذات فاستدار تيبالت نحوه وسبه في وجهه قائلا له إنه نذل حقير.

ولم يكن روميو كما تعلم في حال يستروح معها إلى القتال والجلاد، وبخاصة حيال فتى هو ابن عم حبيبته جولييت ووليها فاكتفى بأن يجيبه على إهانته جواباً ليناً مترفقا، ولكن هذا الحلم الغريب من روميو أشغل غضب مركتيو واثار حنقه فانثنى يتحرش في عنف بتيبالت ويستفزه إلى امتشاق الحسام ويستفزه إلى المبارزة والقتال..

فنشبت معركة بين الفريقين وجعل روميو وبنفوليو خلالها يبذلان جهدهما في سبيل التوسط بين الجمعين، مكتفيين بمقارعة سيوف خصومهم وإسقاطها من أكفهم في غير طعن ولا ضرب.

ولكن تيبالت تمكن من توجيه طعنة بسيفه إلى مركتيو جعلته يخر مجندلا ينزف الدم منه، وانصرف تيبالت مبتعداً برفقائه فتبين روميو أن

جرح مركتيو مميت فاستعان بنفوليو بالمواطنين الذين اجتمعوا على مشهد المعركة، على احتمال الجريح المنازف المحتضر إلى بيت من الموضع قريب..

غير أن روميو حين شهد على يمينه صديقه على هذه الصورة فتيلا بيد الإثم والعدوان، في نزاع قام بسببه؟ لم يعد في إمكانه تمالك نفسه، أو كبح جماح غضبه فأسرع نحو تيبالت واستفزه إلى القتال وما لبث أن أراده..

ووقف لحظات على مصرع تيبالت مبهوتاً مذهولاً مما فعل، غير أن بنفوليو ألح عليه في الفرار فتولى من المكان هارباً، وكان بنفوليو قد أراد بإلحاحه هذا إنقاذ صديقه قبل أن يخطر بخلد أحد من الجمع المزدحم حولهما أن يلقي القبض عليه.

وكان بعض الناس حينئذ قد أبلغ النبأ إلى أمير فيرونا فجاء هذا مع عميدي العشيرتين مونتاجو وكابوليت ونسائهم وذويهم يهرعون..

فطلب أمير فيرونا في الحال بياناً عن الحادث وكان بنفوليو شاهد العيان الوحيد الذي كان حاضراً من بداية الحادث إلى نهايته فأنشأ يقص على مسمعه القصة بحذافيرها، فوصف كيف أن روميو استفزه على كره منه مصرع مركتيو من يد تبيالت فتحداه ودعاه إلى المبارزة..

وطالبت السيدة زوج الشيخ كابوليت –كما هو المنتظر– بالانتقام من آل مونتاو لقتلهم تيبالت ابن أخي زوجها بينما دافع الشيخ مونتاجو عن ابنه روميو بقوله: "إنما صنع عدلا وأنصف القتيل من قاتله..

ولكن الأمير كان يرى في كل أمر من شأنه أن يكدر الأمن جناية ونكراً، ففض المشكلة بأن نطق بحكم النفي على روميو إذ كره أن يدع القتل في شوارع فيرونا يمضي بغير عقاب.

وإلى جولييت التي كانت تنتظر في لهفة معاد روميو إليها، حملت مربيتها النبأ الباغت بأن روميو قد قتل ابن عمها تيبالت فلم تستطع جولييت بادئ الرأي تمالك نفسها من الغضب على روميو من فعلة كهذه بدت لها مناقضة لطبيعته، وكان ذلك هو الحق في أمره..

وما غضبت إلا لأنها لم تكن تعلم كيف سعى روميو كثيراً في إصلاح ذات البين وتجنب القتال.. ولكنها حين علمت بأن روميو حكم عليه بالنفي تغلب حبها على غضبها وسرها أن يكون تيبالت هو الذي سقط قتيلا دون روميو وإلا لقتله، وهو إلى نفسها حبيب.على أن أشد ما أحزنها هو تصور هذا النفي الذي سوف يفرق بينهما..

ولكن مربيتها التي حملت النبأ الأليم إليها، انثنت إليها تواسيها وترفه عنها قائلة إنها تعرف أين التمس روميو مكمنا، وإنه ربما جاء ليتودع منها على الأقل ويراها قبل وشك النوى.

ولنعد إلى روميو، فإنه حين فر من الموضع الذي جرت فيه المبارزة التجأ إلى الكاهن لورنس فاختبأ في صومعته وأنشأ يسكب سمع الشيخ حزنه، ويبثه ما يخالجه من أسى ويأس فقد كان لا ريب يتوقع الحكم عليه بالموت. ولكن لما جاءه الراهب الكريم ينبأ استبدال الأمير الإعدام بالنفي بدا له أن النفي وما ينطوي عليه من فراق جولييت لا يزال في مثل قسوة

الحكم بالموت وشدته. فظل لحظة يندب حظه ويشكو تسعه، ويصم أذنيه عن سماع عبارات التشجيع التي يوجهها صديقه الشيخ والنصح الذي راح يسديه إليه.

ولكنه انتبه من هذه الحالة التي تملكته على رسالة جاءته من جولييت تطلب إليه فيه الحضور لمقابلتها..

فأفاق من غشيته، وأدرك أن هذه على الأقل فرصة تتيح له توديعها قبل الرحيل..

وطفق الراهب يحاول أن يشعره الاستحياء والاستنكاف من ضعفه ويأسه ويمنيه أن تنتهي محنته إلى نهاية سعيدة.. ويقول له إنه هو وجوليت لا يزالان على كل حال حبيبين يرزقان سالمين من كل سوء.. ومن يدريهما لعل الأمير قد يتأثر فيعمد إلى العفو عنه.. ولعل زواجه بجولييت لا يزال سبيلا إلى التوفيق بين العشيرتين..

ونصح الكاهن له في الوقت الحاضر، بالمقام فترة من الدهر في "مانتوا" وهي مدينة لا تبعد كثيرا عن (فيرونا) حتى يظل على اتصال بها ويتحين الفرصة لإصلاح ما ساء من أمره، وعلاج بأسائه وعاثر حظه..

فاستمع "روميو" إلى هذه النصيحة من الشيخ وأعد العدة لاختلاس زورة لجولييت والظفر خفية بلقائه بها قبل أن يشد الرحال إلى المنفى.

وكانت اللقاءة الثانية والأخيرة التي تمت لهما مزيجا من الفرح والأسى. استرقاها.. والليل ساكن. وبقية العشيرة في المراقد نيام. فكان

الفرح بها في متعة اجتماعهما بضع ساعات. وكان الأسى منها أنهما على وشك فراق أليم ونوى رخية الأمد. وربما الأبد..

ولما أدركهما الفجر. وبدت مطالع النهار. قال روميو لحبيبته.

– "الآن قد حان الرحيل. ومع الرحيل الحياة. أو قد حان البقاء وفي البقاء الموت".

وقد أراد بذلك أن يقول أن القوم في الدار إذا استيقظوا واكتشفوا أمره قتلوه وبعد أن وعدها في كلماته الأخيرة أن سيظل يكتب إليها من "مانتوا" وانثنى يواسيها ويحاول نفي الهم عنها بالتعلل بأنهما سوف يعيشان حتى يعودا كرة أخرى.! فيذكرا في سرور آلامهما الحاضرة، وأحزانهما الراهنة.

وانسل روميو يهبط من شرفة مخدعها وما لبث أن احتواه الليل في وقت السحر.

أما جولييت، فليصنع الله لها! لقد دبت إلى قلبها أحاسيس غريبة تنذر بسوء. فلم تستطع أن تتمالك عبراتها، فاستفاض الدمع من عينيها.

وجاءت أمها عقب الفجر بقليل فوجدتها في المخدع شاحبة مغرورقة العينين بالبكاء– فظنت أنها إنما كانت تبكي حزنا على ابن عمها تيبالت، وكانت أمها قد جاءت تحمل إليها أنباء تنسيها ذلك الحادث الأليم وتجد فيها مباغتة سارة لها.

وذلك أن الشيخ كابوليت كان منذ أمد، وهو لا يدري شيئاً عن حب ابنته وزواجها، يفكر في أمر مستقبلها. وقد اختار لها شريفاً يدعى "باريس" كان يبدو له أنه الخطيب الخليق بها من كل وجه الحرى بأن يكون لها زوجا من كل ناحية. وظن أن جولييت سوف تروح الفخور الفرحة بقبوله زوجا لها.

ولما كان باريس أرغب ما يكون في الظفر بزوج مليحة كهذه ولم يكن ثم سبب للتسويف والتأجيل، حدد أبوها للعرس يوماً قريباً لم يبق عليه غير أيام معدودة.

هذا هو النبأ الذي جاءت أمها إليها تحمله، ولكنه بدلا من أن ينفي عنها الهم. ويسري عن فؤادها لم يزدها كما تعلم إلا حزنا على حزنها.

ورأت أمها أمارات الأسى بادية عليها فعجبت لها العجب كله بينما ذهبت هي تتشفع بكل ما اتسع خاطرها أن تتشفع به لكي تقف هذا الزواج المقترح عليها أو ترجئ موعده. فاحتجت بأنها لا تعلم عن الزوج المفروض عليها غير قليل للغاية، وأنها لا تزال من الحداثة بحيث لا ينبغي الآن تزويجها. وأن أمر الزواج قد جاء ولما يمض وقت طويل على مصرع ابن عمها.

وراحت تذكر هذه الأسباب ونحوها، ولا تذكر السبب الحقيقي الذي يحول دون ما أرادت العشيرة به. وهو أنها قد تزوجت وقضي الأمر الذي فيه تستفتيان!

وكان الله للفتاة المسكينة، فإن معاذيرها إنما أثارت حنق أبويها، وبدا لأبيها أنها بالاعتراض على مشيئته قد أبى عنادها إلا أن تضع الحوائل والعقبات في سبيل سعادتها ورغيد مصيرها.

وقد تناهى به الغضب إلى حد جعله يلقي إليها كلاما قاسيا لا ينبغي أن يصدر من أب لابنته، وأمرها في غلظة وجفوة أن تستعد الخميس القادم للزواج بباريس فإنه اليوم الذي حدده لقرانهما.

وخرج من الحجرة بعد الإنحاء عليها بالكلم الخشن والألفاظ القاسية فدارت جولييت بعينيها تلتمس الفزع إلى أمها، ولكن هذه كانت قد خرجت في أثر زوجها ووجدت جولييت القوم جميعاً حتى مربيتها في حزن عليها إذ قالت المربية لها أنه ما دامت لا تستطيع القران بروميو فمن الحماقة أن تأبى خطيباً حراً خير منه مقاما وأحسن مرداً.

فانتوت جولييت من فرط ما ألم بها أن تلتمس المشورة عند الراهب الطيب القلب، الحدب. الحنون. فنبأت أبويها بأنها ذاهبة إليه لتدلي باعترافها وتلتمس منه البركة.

وكان الراهب قد علم من قبل بهذا الزواج، ونبئ بخبره إذ زاره الكونت باريس ليتفق معه على المعدات الواجبة لعقد القران. ولم يكن قد انصرف حين وصلت جولييت فالتزم من باب الأدب أن ينسحب حين تدلي جولييت إلى القسيس باعترافها ولذلك استأذن في الذهاب وهو يقول: "سآتي مبكراً صباح يوم الخميس في طلبك".

ولما خلت جولييت بالكاهن ذهبت تلتمس بحرارة نصيحة ومعونة مؤكدة له أن لا شيء ثم يراد منها أن تواجهه إلا واجهه حتى ولو كان الموت انتحاراً بيديها فإن ذلك خير لها وأهون عليها من التخلي عن روميو للزواج بالكونت.

وكان الكاهن يعزها إعزازه لروميو فاقترح عليها أخيرا أن تتناول علاجا يشد نفسها ويشجع إرادتها.

قال:

– "اذهبي إلى بيتك وأظهري الفرح، وأعلني الرضا عن اتخاذ باريس زوجا، وغداً الأربعاء فإذا أمسى منه المساء، فاجتهدي أن تنامي وحدك في مخدعك. غير مصطحبة مربيتك، وخذي هذه القارورة معك فإذا أويت إلى فراشك فاشربي السائل المقطر الذي احتواها، وأجرعي الدواء الذي فيها".

ودس الكاهن قارورة في يدها قائلا إنها تحوي شرابا إذا تجرعته لبثت اثنتين وأربعين ساعة رهن غشية لا تعي فيها شيئا، وبرد منها البدن، وخيل لمن يراها أنها قد فارقت الحياة.

وكذلك حين يأتي الخطيب الذي سيبني بها في صباح اليوم المضروب للزواج موعداً، فلا يخامره شك في أنها قد ماتت.

وسوف تحمل بعد ذلك، على عادة البلاد ووفق طقوسها، وهي غير مغطاة فوق نعش، أو تابوت، لتدفن في مقبرة العشيرة، فإذا كانت تملك من الشجاعة والجلد ما تقوى به على احتمال ذلك كله فسوف تثوب إلى

رشدها بعد الاثنتين والأربعين ساعة. وحينئذ يخيل إليها أنها كانت في حلم واستيقظت منه.

واستتلى الراهب يقول:

– وخلال ذلك أكون قد بعثت برسالة إلى روميو حتى يكون حاضراً ساعة تفيقين ليحملك معه إلى مانتوا.

فرحبت جولييت بالخطة وتقبلت الفكرة، ورجعت أدراجها إلى البيت وقد استعدت لتنفيذ ما أشار الراهب عليها به، فوجدت أبويها في شغل شاغل بإعداد معدات زواجها.

وحين علم أبوها منها بأنها على استعداد لتنفيذ رغباته، كان سروره بالغاً من نتائج زيارتها للكاهن.

قالت:

– أستميحك الصفح والمغفرة يا أبت فبذلك أمرني الراهب الطاهر وبه نصحني، ومنذ الساعة لم أعصي لك أمراً.

وجعلت جولييت تتظاهر كثيراً بالاهتمام باختيار ثياب عرسها وحليها وزيناتها، ولكنها رجت إلى مربيتها أن تدعها وحدها تلك الليلة وتذهب تساعد أمها على استكمال المعدات.

ولما حانت اللحظة الرهيبة. كان تناولها الجرعة المشئومة يقتضيها استجماع كل ما لديها من شجاعة، ويستوجب منها كل ما في نفسها من إقدام، أفلا يجوز أن يكون سما هذا السائل الذي دفع به الراهب إليها، بل

ماذا تكون الحال إذا هي استيقظت قبل الموعد المحدود بفترة. فوجدت نفسها في حلكة الظلام، وفي السرداب المغلق، وسط بقايا الموتى وهياكلهم العظمية؟

وقد تمثل ذلك لخاطرها فملأ نفسها رعبا.ولكنها لم تلبث أن تذكرت حبها وحنينها إلى روميو فطرحت جانباً مخاوفها وشربت السائل المعلوم، وما هي إلا لحظة يسيره حتى تولتها الغاشية فلم تعد تعي شيئا.

وفي هذا الوقت ذاته كان أبواها وقد سرى عنهما أن وجدا جولييت قد غيرت رأيها. كما كان خدم البيت جميعاً منشغلين إلى ساعة متأخرة من الليل وفي بكرة الصبح بتنظيم البيت وتنسيقه استعداداً لحفلات الغداة.

وبكر أبوها في النهوض من فراشه وما أن سمع مواقع أقدام آل "العريس"وجماعته وهم يقتربون من البيت حتى أمر المربية باستدعاء العروس.

وقال: "اذهبي فأيقظي جولييت وبالغي في زينتها، فإني ذاهب للتحدث مع باريس حتى تستوفي تطريتها هيا أسرعي، أسرعي. فقد جاء العريس وبجوليت فارجعي.. أسرعي. قلت لك، أسرعي!!"

ولكن حين دخلت المربية على جولييت في مخدعها، لم تكد تصدق عينيها، وظنت بادئ الرأي أن الفتاة وسني فحاولت إيقاظها. ولكن جوليت لم تتحرك في مرقدها بل لبثت جامدة شاحبة الخدين متخشبة الأطراف باديتها.

ومن فجأة الفزع التي انتابتها انثنت تنادي أبويها وما لبث الجميع أن اعتقدوا أن جولييت قد ماتت فساد الاضطراب أرجاء البيت وشاع الأسى وانتشر الفزع، ووقف الكونت باريس جامداً لا يعير عن الذهلة حراكا وقد حرم من عروسه الحسناء، وتملك الذهول والحزن وخيبة الأمل، الأبوين، وقد فسدت خططهما التي عنيا بإعدادها، لإسعاد ابنتهما الوحيدة وقست المقادير عليهما. إذ لم يبق أحد إلا جزع خلا الراهب لورنس فقد ظل هو دونهم الهادئ الرابط الجأش! وراح كما ينبغي لكاهن مثله يحاول تسكين أحزانهم وتهدئة فيض ترحهم وشدة لوعتهم، وطلب إليهم إعداد العدة لتشييع الجنازة.

وهكذا انقلب اليوم السعيد البداية في أعين العشيرة وأهل الدار جميعا كئيبا بمسيرة جنازة على مغيبه، إذ حملوا جثمان جولييت ومضوا به ليرقدوه في مضاجع الموت من مقبرة العشيرة.

وقد ألف الناس أن يقولوا أن أخبار السوء أسرع مسيراً من الأخبار الحسنة. فما لبث خبر وفاة جولييت ودفنها أن بلغ روميو في مانتوا ولم يكن قد تلقى بعد الرسالة من الراهب لورتس ولو أنه تلقاها لعرف منها إنها لم تمت فعلا وإنما هي في غيبوبة ترتقب مقدمه.

وكان روميو قبل وصول الأنباء السيئة إليه فرحا، ويشعر بانشراح على غير العادة، إذ كان قد صحا من حلم هنيء ظنه فألا حسنا وهو أنه رأى فيما يراه النائم أن حبيبته جولييت قد وجدته جثة هامدة "فنفخت فيه من القبلات على شفتيه فارتد حياً. وصار ملكا عظيما"!

وكان روميو ممن يستخفهم الفرح، ويتأثرون سريعاً بالهم، فلما جاءه غلاما ينبأ وفاة جولييت ودفنها غشيه من الغم ما غشيه، ونزل به من الخطب ما هوى به إلى يأس شديد، وخطر له أن لابد من الذهاب في الحال والتودع بنظرة أخيرة إلى حبيبته جولييت وإن كانت قد وسدت الثرى وأسكنت في مساكن الآخرة.

فأمر بسرجه فهيئ له، وبجواده فأعد لركوبه، وما لبث أن تملكته فكرة أخرى من فرط يأسه، وحرقة جواه، وهي الحصول على بعض السموم من صيدلي فقير يقع حانوته على مقربة منه وحمل ذلك السم معه، فإذا صح أن جولييت قد ماتت، فلم تعد الحياة تطيب له هو كذلك.. وكان بيع السم في تلك الأيام معاقبا عليه بالموت في قوانين مانتوا ولكن الصيدلي الرقيق الحال لم يستطع التمنع عن بيعه إزاء الثمن الغالي الذي دفع به روميو إليه.

ولما تجهز روميو للرحيل على هذه الصورة ركب رأساً إلى فيرونا فدخلها والليل قد تنصف، وراح يأخذ الطريق إلى فناء الكنيسة حيث تقوم مقابر آل كابوليت وكان قد جاء بمصباح معه فاستضاء به، واستعان بقطعة من حديد ملتوية على مزلاج الباب ليكسره.

وبينما كان منهمكا على هذه الصورة في فتح المقبرة إذ خرق أذنيه صوت من خلفه فجأة يقول: "أيها المونتاجي الوغد" فإذا به صوت الكونت باريس وكان قد جاء على الرغم من انتصاف الليل وإدباره، لينثر الزهر والدمع على جدث الفتاة التي كانت ستصبح عروسه.

وكان كما تذكر لا يدري شيئا عن حب روميو لجولييت فلما رأى رجلا من آل مونتاجو حياله، وهم ألد أعداء عشيرته، ظن أن روميو قد جاء ليرتكب فعلة تدنس قبر أعداء أسرته، فغضب وأمره بأن يكف وهم بأن يقبض عليه، لأن اقتحام القبور كان جرما شنيعاً، وشيئا فريا.

وعبثاً حاول روميو إبعاده مهدداً إياه بقتله وانتهى الأمر بينهما إلى امتشاق السيف وهم به روميو وهو في حال من اليأس تركته مستخفا لا يعي شيئا فجندله.

وراح الكونت التعس يغمغم وهو يجود بأنفاسه الأخيرة: إن كنت رحيما فافتح القبر وأرقدني بجانب جولييت.

وعلى ضياء المصباح نظر روميو إلى وجه القتيل ليتبين من يكون الفتى.

وعند ذلك أدرك أنه هو بذاته "باريس" الذي سمع بأنه كان سيتزوج بجولييت، فنفذ إلى صدره الألم للشركة في الشعور. والرثاء لمثيل له في البلية والشقاء، فاحتمل برفق جثة باريس فأرقدها في القبر بجانب رفات جولييت.

ووقف لحظة يطيل النظر إلى هيكلها الساكن الخالد، وإلى ذلك الحسن الباهر في الموت كما كان في الحياة، ثم أهوى بحنان على شفتيها بقبلهما آخر القبلات وبادر إلى كأس السم فاجترعه وخر ميتا ساكن الأنفاس.

وكانت الساعة المعينة لزوال تأثير الجرعة التي تناولتها جولييت قد حانت، وأوشكت الفتاة أن تفيق من غشيتها، فجاء الراهب لورنس وحده، يحمل فأساً وحديداً، لأن الرسول الذي أنفذه إلى مانتو، لم يبلغها إذ صادفه في الطريق ما عاقه عن الوصول إليها، وعلم الراهب بالخبر، فأسرع في المجيء ليكون في المقبرة حين تفيق جولييت إذ ظن أنه مادام روميو لم يتلق الرسالة التي بعث بها إليه، فلن يكون حاضراً عند إفاقتها.

ولكن بينما كان الراهب يسير في طريقه بين القبور إذ تقدم إليه خادم لروميو كان قد جاء معه ولكنه امتثالا لأمر سيده وتشدده، وقف عن القبر بمعزل، فأشار هذا إلى الراهب يدله على موضعه، فذهب على ضياء مصباحه يتلمس طريقه إليه وقد امتلأت نفسه رعبا بدافع غريب لم يدرك كنهه.

بالله ما هذا النور الذي رآه مضيئا خارج المقبرة، وما آثار الدم هذه التي خضبت وجه الثرى، وما أمر هاتين الجثتين الطريحتين اللتين يرى؟!

واقترب رويداً فشهد جثتي روميو وباريس، وبجانبهما جولييت قد أخذت في رفق تفيق من سباتها المستطيل وغشيتها المتراخية.

وفتحت جوليت عينيها فرأت الراهب حيالها، فأخذت رويداً تثوب إلى نفسها، وعادت إليها الذاكرة.

وأنشأت تقول للراهب مسائلة: أين زوجي؟! فإني حيث ينبغي أن أكون لذاكرة، فأين روميو يا ترى؟!

فهم الراهب بالجواب، وإذا به يسمع جلبة قوم يقتربون، إذ كان تابع باريس قد غادر مشهد المبارزة وأسرع يطلب حارس المقبرة..

وخشي الراهب أن يراه القوم في ذلك الموضع مع جولييت، وهي من بعد الموت ناشرة، فطلب إليها أن تمضي معه مسرعة مبادرة. ولكن جولييت كانت قد رأت روميو طريحا على مقربة منها، فلم تشأ أن تفارق مكانها فذهب الراهب ليلتمس له مخبأ غير بعيد.

وعند ذلك شهدت روميو ميتاً ولا يزال كأس السم قائما في يده، وعرفت أنه حين ظنها قد ماتت، شرب ذلك السم، فاستولى عليها من هذه النتيجة الفجائية حزن بالغ، وغم محيط، فأخذت الخنجر الصغير الذي كانت تحمله من جرابه، فأنفذته في قلبها.

ولما جاء الحراس فأبصروا الجثث الثلاث طرائح، والدم المراق ينم عن نشوب مبارزة. اعتقلوا خدم روميو وباريس والكاهن الشيخ المسكين الذي وجدوه غير بعيد، وأبلغوا الحادث إلى مسامع الأمير حاكم فيرونا وأباه الموتى، فحضروا جميعا.

ولما طب الأمير إلى الكاهن الشيخ الحزين أن يدلي بشهادته قص عليه القصة من أولها إلى آخرها.

وإليك ما قال: فإن شهادته موجز صالح لهذه المأساة.

"إني لموجز شاهداً، فإن قصر أنفاسي لا يجاري طول قصة متراخية الحلقات متعددة إن روميو الذي ترونه ثم ميتاً مجندلا كان لجوليت بعلا–

يشير إليها في خلال حديثه- وإن جوليت الذين تشهدون هنا ميتة طعينة؛ كانت لروميو زوجا أمينة، وأنا الذي عقدت لهما وقمت بتزويجهما، وكان يوم قرانهما الخلسة، هو يوم نهاية تيبالت التعسة. وأدت منيته الباكرة، إلى نفي القرين الجديد من هذه الحاضرة، من أجله حزنت جوليت يومئذ واغتمت لا لمصرع تيبلت، وأنت -مشيراً إلى الشيخ كابوليت- لكي تزيل عنها الهم الذي أحاط بها، اخترت الكونت باريس ليتزوجها وكدت تزوجها قهراً عنها، فجاءتني مروعة تستنصحني وقصدتني لتستعين بي على الخلاص من زواجها الثاني، وإلا في صومعتي قتلت نفسها، لتنجو من بؤسها فأعطيتها مما علمت، ومن صومعتي تلقتنت: شرابا منوما. ما أن شربته حتى ظهرت عليه من مفعوله ما أرادات. وهو أن تتراءى مائتة وهي لم تمت.

وفي الوقت ذاته كتبت إلى روميو في مقر إقامته استقدمه إلى هنا. في هذا الليل الرهيب الذي يحتوينا، ليحملها من مستعار قبرها. حين يذهب عنها مفعول الجرعة وتأثيرها. ولكن حامل رسالتي. الأخ حنا من الرهبان إخوتي. عاقته حادثة فعاد أمس إلي برسالتي. وفي الساعة المعينة ليقظتها جئت بمفردي إليها في وحدتها لأخذها من مقابر عشيرتها على نية إبقائها في صومعتي حتى أرسل إلى روميو رسالتي.

ولكن حين جئت قبل الأوان ببضع لحظات، رأيت القتيل باريس طريحا هنا طرحة الممات، ووجدت روميو الوفي الأمين، مجندلا رهن المنون، ولما استيقظت جوليت توسلت إليها وتضرعت، أن تخرج معي وتصطبر لما قدر الله فكان، وتتجلد للهموم والأحزان، ولكني سمعت جلبة روعتني،

فالتمست بعيداً من القبر مكمني! أما هي فمن فرط اليأس أبت رحيلا! وها هي ذي كما أرى أودت نفسها قتيلا.

كل ذلك كنت به عليما، وكانت مربيتها لسر الزواج كتوما فإن كان لي فيما جرى ذنب وجريرة، أو أتيت به أمراً منكوراً، فلتكن حياتي الفانية، هي التضحية للقانون وإن استوجب القسوة المتناهية، فما في حياتي من الساعات غير بقية، فلتكن منيتي قبل هذه البقة الباقية".

وانثنى خادم الكونت باريس من بعده يروي كيف وقعت المبارزة على المقبرة، وتلاه خادم روميو فقص كيف ركب مولاه من مانتوا. فوضحت للقوم القصة المحزنة بكل أدوارها، واستدار الأمير إلى الشيخين مونتاجو وكابوليت فبين لهما في عتب وملامة كيف كانت الخصومات الحمقاء بين العشيرتين هي السبب الأول في هذه الأحداث و النكبات.

فما كان من الفريقين أخيراً، وبعد كل هذه المصائب والويلات إلا أن أقبل بعضهم على بعض متصافحين، واقسموا على الصداقة وتحالفوا على السلام والوئام.

سمبلين ملك بريطانيا

كانت بريطانيا في الأيام الأولى من تاريخ الدولة الرومانية العظيمة.. لا يزال يحكمها ملوك من أهلها وبنيها. وقصتنا هذه تتحدث عن حياة الملك سمبلين بما تعاقب عليها من خير وشر، وسعد ونحس. وعن ابنته ايموجن فقد قضت زوجته الأولى نحبها.. حين كان أولادها الثلاثة منها أحداثا صغارا. وهم ولدان وبنت. فسرق الولدان من غرفة مهديهما.. بطريقة غامضة خفية لم يعرف أحد عنها شيئا. ولم يهتد أحد إلى الغلامين أو يقف لهما على أثر وبقيت ايموجن ابنة الملك فنشأت في بلاط أبيها.

وتزوج أبوها عقب وفاة أمها بأرملة ذات ولد من زوجها الأول وكان الولد يدعى كلوتين. فانقلبت هذه الزوج امرأة أب قاسية على ايموجن. تضمر لها الكراهة والبغضاء، لأن الحق في سرير الملك سيؤول بعد وفاة سمبلين إليها. ولا يؤول لولدها كلوتين. ولكنها لهذا الباعث ذاته جعلت تكيد كيدها لتزويج ايموجن به. مؤملة بذلك أن يصبح هو صاحب السلطان الفعلي في بريطانيا.. عقب وفاة سمبلين. ومآل الملك إلى ايموجن وريثته، مادام كلوتين قد صار لها زوجا.

ولكن خطة امرأة الأب لم تصب رائد التوفيق. لأن ايموجن لم تكن تميل إلى الزواج بكلوتين فقد كان محبا لذاته وكانت تزدريه وتنفر منه وذهبت في السر تتزوج من سواه. دون استشارة الملك أو موافقة الملكة.

وكان زوجها "بوستيوماس" شابا كريم الخلق.. على جانب من الأدب والعلم. ضليعا من معارف عصره.. وكان أبوه جنديا باسلا مات وهو يقاتل في حروب سمبلين وغزواته قبل مولد غلامه. وماتت أمه وهي تضعه فكفله سمبلين وقام على تنشئته في بيت الملك. ومن هنا عرفته ايموجن وأحبته.. وقد نشأ رفيقين من بكور الطفولة يرتعان معا ويلعبان.

وما لبث جواسيس الملكة وعيونها الذين بثتهم حول ابنة زوجها ليحملوا إليها أخبار حركاتها وسكناتها أن وافوها بنبأ هذا الزواج فبادرت إلى الملك فخبرته به فوجد على ابنته وغضب عليها غضبا شديدا. لأنها لم تستشره، في أمر زواجها. ولأنها تزوجت بفتى من رعاياه لا يمت إلى البيت المالك بنسب. وحكم على بوستيوماس بالنفي المؤبد من المملكة.

أما الملكة فمن مكرها أخفت غضبها وسعت في كسب ثقة ايموجن بإظهار العطف عليها واصطناع الرثاء لها، وظنت أنها قد تحملها فيما بعد على التخلي عن هذا الزواج، من أجل حبها لوالدها الملك. فيتمهد بذلك السبيل إلى تزويجها بكلوش.

وانثنت في تظاهرها بالرثاء للزوجين الشابين تدبر لهما السبيل للخلوة الأخيرة بينهما قبل أن يزمع بوستيوماس الرحيل إلى روما التي اختارها منفى له.

وفي هذا الاجتماع تودع العاشقان وداعا قصيرا ولكن مليئا بجوى الحب، وحرقة النوى. وأعطت ايموجن زوجها خاتما من الماس كان من قبل لأمها، فوعدها بوستيوماس أنه سيظل دائما أبدا الحريص عليه فلا يفارقه.

وشبك هو بدوره حول معصمها سوارا وناشدها إلا ما حفظته أبدا رمزا لحبه، وتبادلا العهود والمواثيق على الوفاء والإخلاص مدى الحياة.

وكذلك لبثت ايموجن في بيت أبيها، مستوحشة حزينة خلية من السلوى واتخذ بوستيوماس بعد سفر طويل، في روما مقاما له ومستقرا.

وفي روما عرف خلقا كثيرا واختلط بمجامعها، واختلف إلى أسمارها، ففي ذات يوم جمعته المصادفات بنفر من الشباب يمتون إلى جنسيات مختلفة، فجرى الحديث بينهم عن نساء بلادهم والموازنة بينهن في مبالغ الجمال وحسن الخلق، فأنشأ بوستيوماس وهو يتمثل ايموجن الحاضرة في خاطره، يثني الخير على خلقها ويمدح أدبها، وبنوه قبل كل شيء بإخلاصها ووفائها.

وكان في المجلس إيطالي يدعى "يواكيمو" فأنكر بشدة– أن تكون سيدة في بريطانيا أكثر إخلاصا من أية واحدة سواها وراح يراهن على استعداده لإثبات ذلك قائلا أنه مستعد للشخوص بنفسه إلى بريطانيا والظفر بمحبة ايموجن وحملها على أن تعطيه السوار الذي أقسمت على الاحتفاظ به أبدا، فإذا تواتي له ذلك، كان دليلا على أنها لم تكن وفية لزوجها.

فما كان من بوستيوماس في لحظة من لحظات التهور والجهالة إلا أن قبل هذا التحدي.

واتفق يواكيمو على أنه إذا فشل في الظفر بالسوار دفع إلى

بوستيوماس قدرا كبيرا من المال، وإذا هو أصابه دفع بوستيوماس إليه الخاتم الألماسي الذي عاهد ايموجن على أن يلبسه أبدا ولا يفارقه.

لقد كان لبوستيوماس من الإيمان بوفاء ايموجن وإخلاصها ما جعله يسخر من فكرة خسارة الرهان الذي تراهن عليه.

وارتحل يواكيمو إلى انجلترا وقدم إلى قصر سمبلين ولم يجد مشقة في الدخول على ايموجن إذ ادعى أنه صديق لبوستيوماس، وكان هذا قد حمله كتابا ذكر فيه أن بواكيمو من صحابته.

وحاول يواكيمو أن يزعزع إيمان ايموجن بإخلاص بوستيوماس فراح يفتري "الكذب عليه" زاعما أنه يحيا في روما حياة مرحة كأنما قد نسيها ولم يعد يهتم بها، ثم ذهب بكاشفها بالحب ويصف فتونه بسحر جمالها ويحاول اكتساب محبتها، ولكن ايموجن ردته عنها ساخرة مزدرية.

ولما أدرك أنه لن يؤاتيه التأثير في نفسها حتى تنزل له عن السوار راضية، عمد إلى الحيلة، والتجأ إلى المكر والخدعة فزعم أنه قد جمع من انجلترا عدة هدايا قيمة لأصحابه في إيطاليا وأنه قد أودعها حقيبة من حقائب أمتعته لأنه يخشى أن تسرق قبل الرحيل من البلاد ولأنه لم يجد مكانا أمينا يصونها فيه.

وصدقته ايموجن وأذنت له في حفظ الحقيبة في مخدعها حيث تبقى في مأمن من السراق، وبمنجاة من اللصوص فنبأها بأنه سيرسل الحقيبة إليها في ذلك المساء بالذات.

ووصلت الحقيبة في الموعد المضروب وحملت إلى مخدع ايموجن، ولم يكن في جوفها شيء من هدايا ولا نفائس كما زعم، وإنما كان هو بنفسه مختبئا في جوفها لحاجة في نفسه يريد قضاءها.

ولما أوت ايموجن إلى فراشها وأخذ النوم بمعاقد جفنيها تسلل يواكيمو من جوف الحقيبة محاذرا وأرسل البصر فيما حوله حتى وعى في ذاكراته جميع معالم نظامها، وحفظ في خاطره كافة ما حوت من صور وتماثيل، وأثاث ورياش، وأشباهها، ثم استرق الخطى إلى ايموجن النائمة وبكل خفة افتك السوار من حول معصمها وتسلل عائدا إلى جوف الحقيبة كما كان.

فلما كانت الغداة، حملت الحقيبة من مكانها، فخرج "يواكيمو" من جوفها وغادر القصر وقفل راجعا إلى إيطاليا وعلى أثر وصوله إلى روما ذهب في جرأة إلى بوستيوماس وادعى أنه قد كسب الرهان واستحقه، غير أن بوستيوماس بالطبع لم يصدق قوله، فما كان منه إلا أن أنشأ يصف له مخدع ايموجن وجملة ما حوى من صوره ورياشه، ثم أخرج السوار فعرضه على عينه قائلا أنها قد أعطته إياه، بل ذهب بصف شامة على نحرها.

فاقتنع بوستيوماس بأن يواكيمو قد استرق عاطفتها واستلب فعلا حبها فانفجر سخطه على زوجته الغادرة وسلم إلى مراهنة خاتمه الألماسي تنفيذا للاتفاق الذي جرى بينهما.

وانتوى بوستيوماس من فرط غضبه واحتدام نار الغيرة في صدره أن ينتقم من ايموجن فكتب إلى أحد أتباعه وهو رجل يدعى (يبزانيو) كان

صديقا حميما له في انجلترا ينبئه بخيانة زوجته لعهده. ويلح عليه في السعي عندها لتغادر بلاط الملك فيصحبها إلى ثغر على سواحل ويلز بلاد الغال يدعى "تليفورد هافن" وهناك يقتلها ومع الرسول الذي حمل الكتاب إلى صديقه بعث إلى ايموجن بكتاب يقول لها فيه أنه لم يعد يطيق العيش بعيدا منها ويرجو إليها في الكتاب أن تشخص مع بيزانيو إلى الثغر المعين في بلاد ويلز فتترقب مقدمه من روما لأنه وإن كان لا يجوز له دخول انجلترا أو يستهدف لعقوبة الموت، فلا بأس عليه من دخول ذلك الثغر القائم على سواحل ويلز.

ولما تناولت ايموجن كتابه دفعها حبها له إلى إعداد العدة في الحال والسفر مع بيزانيو إلى الوجهة المعينة في تلك الليلة بالذات.ومهما يكن العزم الذي اعتزمه "بيزانيو" حين خرج بايموجن يريد وجهه. فلم تكن نفسه لتطاوعه على تنفيذ مهمته عندما يحين وقت العمل.

ولما اقتربا من الساحل أنشأت ايموجن تسأله أين ومتى يجتمعان بزوجها العزيز وتشرح له شدة لهفتها على لقائه فلم يجب بيزانيو على أسئلتها ولكنه دفع إليها بالكتاب الذي جاءه من بوستيوماس فانثنت في ذهول وغم وأسى بالغ تقرأ ما حوى الكتاب من اتهام زوجها لها بالخيانة والغدر والحنث بالعهد وتكليفه صاحبه هذا بقتلها.

وكان الكتاب يحوي هذه العبارات: "دع يديك تستلبا حياتها وأني لمهيئ لك الفرصة في هلفورد هافن لانتزاع روحها وعندها منى كتاب لهذا الغرض".

فلم يكن ثم ريب في أن هذه التعليمات قد كتبت بيد بوستيوماس وخطه ولكن يا لله، ما الذي حول حبه هكذا إلى كراهية. وبدل من كلفه بها مقتا.

لقد استغلق الأمر عليها وحزنت مما علمت حزنا لا حدود له حتى لقد بلغ من غمها إن بدت لها الحياة غير خليقة بأن تحيا، والدنيا ليست حقيقة بأن تعيش في أكنافها، فاستلت سيفا لها، ودفعت به إلى كف بيزانيو وأنشأت تقول:

"هأنذى استل السيف بنفسي فخذه، واضرب به مسكن حبي، وأنفذ به إلى قلبي، ولا تخش فإنه قد خلا من كل شيء إلا الأسى والجوى وقد غادره من له كان صاحبا، وكان عامرا به غنيا. يوم كان له وليا فأصدع بما أمرك، وهلم اضرب!"

ولما رأته يتراجع عادت تلح عليه أن يضرب، قائلة: أناشدك ألا ما عجلت فإن الحمل يلتمس القصاب، أين سكينك، أنك لمبطئ في تنفيذ ما أراد مولاك وما وددته أنا كذلك.

فجعل بيزانيو يشرح لها الألم النفسي الذي قاساه من الأمر الذي بعث بوستيوماس به إليه، وهو الأمر بقتلها، قائلا أنه ليؤثر أن يقترف أية فعلة على أن ينفذ ما عهد به إليه، وأنشأ يسري عنها. ويواسيها، بكل ما وسعه من تسرية وما ملك من مؤاساة، وانثنى يقول لها لعلها في يوم ما مكتشفة أن عدوا قد سمم خاطر بوستيوماس من ناحيتها ودس عنده عليها، ويومئذ لعلها مزيلة باعث هذه المحنة التي امتحنت بها.

ولم تكن ايموجن في حال نفسية تسمح لها بالعودة إلى بلاط أبيها وأرادت لقاء زوجها لتهتدي إلى سر هذا التحول الفجائي منه، ولتسترد حبه، وتستعيد رضاه.

وعند ذلك أخذ بيزانيو يفكر في وسيلة تساعدها على السفر إلى روما، والتماس مكان زوجها، وكان سفير روما في ذلك الحين، لدى بلاط سمبلين قائدا عسكريا يدعى "كاسياس لوسياس". وكان يزمع الرحيل إلى إيطاليا فاقترح عليها بيزانيو أن تتنكر في زي غلام وتلتمس الخدمة عند ذلك السفير فلعلها بهذه الوسيلة واصلة إلى روما كبعض تبعه.

فأقبلت ايموجن على هذه الفكرة في لهفة، وعمل بيزانيو على تهيئة الثياب التي تحتاج إليها ثم استأذنها خشية أن تطول غيبته أكثر من ذلك عن بلاط أبيها، ولكنه قبل أن يتركها دفع إليها بحق صغير قال أن الملكة كانت قد أعطته إياه وأخبرته أن يحوي دواء يشفي من الأدواء جميعا.

وكانت حقيقة أمر هذا الحق أن الملكة كانت تكره بيزانيو لصداقته الوفية لايموجن وبوستيوماس فدبرت للخلاص منه، وكادت لمصرعه كيدا، فدعت إليها طبيب البلاط، وكان ذلك قبل سفر بيزانيو وايموجن بقليل– فطلبت إليه أن يوافيها ببعض السموم مدعية أنها تريده لتجربته في الحيوان، فتظاهر الطبيب بامتثال أمرها، ولكن العقار الذي قدمه إليها لم يكن في الواقع ساما، بل لا أذاة منه ولا ضرر، ومن يشرب منه يذهب في سبات أشبه بالموت بضع ساعات، ثم يفيق بعد ذلك وما به شيء أكثر من هذا أثرا.

ولما أخذت الحق من الطبيب بعثت في دعوة بيزانيو فطلبت إليه أن يسعى في إقناع ايموجن بالتخلي عن بوستيوماس وقبول كلوتين لها بعلا. واعدة إياه أن تخلع عليه جميع ألقاب الشرف والخلع والهدايا إذا هو حقق طلبها ولكي تريه مبلغ تقديرها له أهدت إليه حقا قالت أنه يحوي الشفاء من كل داء. وهي في ذات نفسه تعتقد أنه سم قاتل متعللة بأنه سوف يشربه فيتخترمه الموت وبذلك تحرم ايموجن من خلص الأصدقاء. وأوفى الأولياء.

ذلك هو الحق الذي أعطاه بيزانيو لايموجن رغبة منه في خدمتها. إذ كان يعتقد بالطبع أنه يحوي دواء عجبا.

وحين فارقها بيزانيو، استأنفت السير إلى ثغر "تليفورد هارفن" وكان بيزانيو قد وقف يشير إليه من بعيد وهما فوق قمة الجبل.

وكان بينهما وبين الساحل غابة فضلت فيها الطريق وانقضى يومان عليها هائمة على وجهها بين الدوح والشجر حتى أدركها التعب وغشيها من الجوع ما غشيها، حتى كاد اليأس يستولي عليها، ولكن لحسن الحظ ما لبثت أن أتت على درب مطروق فسلكته وأفضى بها بعد قليل إلى كهف فأطلت ببصرها على جوفه فوجدت طعاما وفراشا ولم تجد آدميا، فدخلت تمشي على حذر، وتناولت قليلا من الطعام الذي أبصرت به إذ كانت توشك أن تهلك سغبا.

وما كادت تنتهي من الطعام حتى طرق سمعها أصوات قوم يدنون. وما لبث أن دخل عليها الكهف ثلاثة رجال، شيخ وفتيان في مثل سنها أو

نحوها، فما أن وقعت أبصارهم على هذه الطارئة حتى انبعث من أفواههم صيحات الدهشة ولكن ايموجن كشأنها الشجاع أبدا أخفت مخاوفها منهم وتجلدت لمباغتتهم وراحت تقول أنها جاءت على سفر تريد ثغر تليفورد هافن.

وأفرخ روعها، وخف ما بها من الخوف، حين رأتهم يرحبون بها في عطف ويؤهلون بمقدمها.. ويهيئون في كهفهم مبيتا لهذا "الغلام" إذ حسبوها كذلك وهي متنكرة.

ولم يكن هذان الفتيان في الحقيقة إلا أخويها اللذين اختطفا من سنين مضت من بلاط سمبلين. وما سرقهما غير الشيخ الذي كان معهما ويدعى بلاريوس. وكان من قبل ضابطا في جيش الملك وأبلى في حروبه ضد الرومان بلاء حسنا، وإنماز على أقرانه شجاعة وإقداما ولكن خصومه وحساده وشوا به عند الملك متهمين إياه بالخيانة فصدق الملك اتهامهم ونفاه من بلاطه، فأراد بلاريوس البريء أن ينتقم لنفسه فاسترق الطفلين من المهد وهو ينوي قتلهما. ولكن نفسه لم تسول له فعلته فأبقى عليهما وأقامهما معه في المأموي الذي اصطنعه لنفسه في الغابة ومن الألفة أحبهما كحب الأب ولديه، وكانا يعتقدان أنهما ولداه حقا.

ونشأ الصبيان همامين شجاعين جسورين يعيشان في الغابة من الصيد ولا ينفكان يرجوان إلى بلاريوس أن يأذن لهما في الخروج إلى الحروب يجدان فيها ما كتب لهما من حظ وقسمة.

وسرت ايموجن أن دعوها إلى المكث معهم إلى حين فقد كانت تحس

إعياء وسقما. وعجب الشابان. وهما يحسبانها غلاما. من براعتها وحذقها في إعداد عشائهما وراقهما منها آدابها ورقة شمائلها.

وكذلك أقامت بين ظهرانيهم بضعة أيام قبل استئناف المسير إلى "تليفورد هافن" وقد أصبحت هي وهما أصدقاء وأولياء وإن لم يعلموا أنهم في الحق أخوة.

وكان بلاريوس والشقيقان كلما كادت المؤونة في الكهف تنفد خرجوا يطلبون صيدا. ولكن "فيديل". وهو الاسم الذي أطلقه القوم على ايموجن وقد تصوروها حقا غلاما– كانت لا تزال رهن الإعياء والسقام فلم تكن تخرج معهم. وإذا ما خلت إلى نفسها ألحت عليها همومها واشتدت عليها أحزانها وأوجعها التفكير في قسوة زوجها. فاستولى السقم على نفسها وعند ذلك تذكرت الدواء الذي أعطاه إياه بيزانيو فاجترعته على أمل أن يكسبها قوة. ولكنها ما كادت تفعل حتى تولاها سبات عميق.

ولما عاد الصيادون الثلاثة من الصيد بلحم غزلان وأبل، استبق الكهف بوليدور أحد الأخوين قيصر بايموجن راقدة فحسبها وسنى، فخلع نعليه الضخمين وتسلل مترفقا في خطوه ولكنه لما لم يجد شيئا قد أقلق النائمة من نومها، حتى وإن لمست أو حركت، ظن أن الموت قد عاجلها فاحتملها بين ذراعيه وخرج بها إلى رفيقيه، فحزن ثلاثتهم أشد الحزن على فقدهم هذا الصديق الجديد الذي أمسى فيهم كأنه بعض أسرتهم الصغيرة.

واقترح بلاريوس على الأخوين حملها إلى خميلة ظليلة في الغابة، فاحتملوها جميعا وأنشدوا على جثمانها أناشيد الحداد والندبة وضجعوها برفق

فوق العشب الناضر، وغطوها بأوراق الشجر ونثروا عليها الزهر والرياحين.

وفارقوها فراق حزين قد فجع.

غير أن مفعول الدواء أخذ بعد لحظة يتبدد، وبدأت ايموجن تثوب رويدا إلى رشدها، ثم ما لبثت أن أرسلت بصرها الناعس فيما حولها، فتذكرت حوادث الأيام القليلة الماضية، ولكن كما يتذكر المفيق من النوم حلما بدا له في الكرى، واستوت تلتمس طريقها إلى الكهف، فلم تهتد إليه ولا إلى صحابها الذين عرفتهم منذ حين فلم يبق في نفسها شك في أن ذلك كله كان حلم الحالمين.

وانطلقت تسير مكدودة على أمل أن تصل إلى ثغر تليفورد هافن إذ كان كل بغيتها أن يواتيها الرحيل إلى إيطاليا لتبحث عن زوجها بوسيتوماس.

وبينما كانت هذه الحوادث الأليمة تجرى لايموجن، كانت حوادث عجيبة جارية في بريطانيا، فقد كان الرومان قبل عهد سمبلين قد غزوها واكرهوا أهلها –البريطان– على التعهد بدفع جزية سنوية، ولكن سمبلين أبى فترة من الزمن أن يرضخ بها لهم، فأرسل إمبراطورهم القائد لوسيان على رأس جيش لغزو بلادهم. وفي الوقت الذي كانت ايموجن تسير في الغابة على غير هدى، كان القائد الروماني على رأس مقدمة جيشه يزحف مخترقا ذلك الإقليم بالذات.

وجاء بوستيوماس مع هذا الجيش فيمن جاءوا وكان لا يزال يعتقد أن ايموجن قد خفرت عهده وأن بيزانيو قد نفذ أمره وقتلها إذ كان هذا قد

كتب إليه رسالة بهذا المعنى. فلما قرأه بدأ يندم من الندم على ما كان منه وعاوده حبه لزوجه العزيزة، وحملته الندامة على فعلته، والأسف على محبته. على امتشاق السيف دفاعا عن المملكة التي كانت زوجه ستصبح ملكتها وربة تاجها. ولذلك عزم على أن يفارق جيش الرومان والانضمام إلى جيش البريطان إذ لم يعد من فرط الهم الذي استولى على قلبه. يقدر كبير قيمة للحياة. بل لم يكن ليتردد في لقاء الموت محاربا أو يروح بأمر سمبلين قتيلا جزاء على رجوعه من المنفى بغير استئذان.

وأتى القائد الروماني لوسياس في جماعة من رجاله على ايموجن وهي ضالة في الغابة هائمة على وجهها، وكانت كما تعلم في زي غلام فما لبثت آدابها وهيئتها وتصرفاتها أن اجتذبت قلب لوسياس واستهوته فادخلها في خدمته وجعلها وصيفا في حاشيته.

وفي هذا الوقت سمع الشقيقان اللذان أوياها في كهفهما من الجنود في الغابة أن حربا قد نشبت وأن معركة لا محالة واقعة وانطلقا غير متمهلين بل متلهفين للانخراط في جيش البريطان، فقد كان الفتيان يتوقان إلى النبوغ والتبريز، وعند ذلك استيقظت نفس بلاريوس خليفة المحارب القديم فحتم الذهاب معها وأن أصبح شيخا متقدما في العمر.

وكان في جيش الرومان يواكيمو وقد عين في هيئة أركان حرب القائد لوسياس. ونشبت معركة كبيرة بين الجيشين وانتهى الرومان أخيرا بإكراه البريطان على تولية الأدبار وأمست حياة الملك سمبلين في خطر.

وكانت النكبة موشكة أن تروح عامة، والمصاب عظيما، لولا

الشجاعة الخارقة التي أبداها بوستيوماس والشيخ المغوار بلاريوس والأخوان الشقيقان فقد وقفوا للعدو بالمرصاد في مسلك ضيق وردوا جيشه على الأعقاب وتركوا للبريطان فسحة من الوقت لاسترداد مواقفهم ومفاجأة الرومان من طريق غير الطريق الذي تلاقوا من قبل فيه حتى أوقعوا في النهاية بهم. وأسروا خلقا كثيرا منهم. وفي الأسر لوسياس قائد، والكذوب المحتال يواكيمو، وايموجن المتنكرة في زي الفتيان.

وكان بوستيوماس، من فرط ندامته وحزنه لموت ايموجن، يلتمس الموت في القتال، ويرجو الردي في مضطربه وساحته، فعز عليه الموت ولم يجد في القتال تحقيق طلبه، فسلم نفسه بعد الموقعة إلى جنود من جيش سمبلين، أخذوه أسيرا وهم لا يعلمون من أمره قليلا ولا كثيرا.

ولما انتهى القتال، وتمت المطاردة، سيق بأخطر أسرى الرومان شأنا إلى الملك سمبلين، وهم القائد لوسياس ووصيفه ويواكيمو، وفي أثرهم وقف بوستيوماس بين حارسين وهو في أطمار من ثياب القرويين، بينما كان بيزانيو في الحاشية، وقد وقف غير بعيد من الملك.

ولم تكن الملكة حاضرة ولا ابنها كلوتين في الماثلين، لأنهما كان قد ماتا، إذ قتل كلوتين مذ وقت قريب في مشاجرة، وأما الملكة فقد اختفت فيما كانت تكيد له كيدها وهو تزويج ايموجن من ولدها، وعذبها الشعور بجزيرة الذنب الذي اقترفته، والندامة على ما أتته فمرضت وأسلمها المرض إلى الموت فقضت منذ أمد غير طويل.

فلما مثل الأسرى في حضرة الملك سمبلين أعلنهم برغبة أهل الجنود

الذين سقطوا في الحومة من البريطان وهي أن يكون الحكم على الأسرى الرومان بالإعدام.

وأجاب القائد الروماني لوسياس أنه عن نفسه متقبل هذا الحكم، كما ينبغي لروماني ولكنه إنما يسأل الرحمة لوصيفه، قائلا أنه ليس بروماني ولكنه بريطاني وما نال بالأذى أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء.

فنظر الملك إلى الوصيف فلم يتبين ابنته في تنكرها وأن حرك مظهرها على عينه في نفسه شيئا من الألفة والميل فقال للوسياس: "لا شك عندي في أنني رأيته من قبل فإن هذا الوجه أعرفه" واستدار إلى ايموجن فأنشأ يقول:

"يا فتى...

"أنت نفذت بنفسك في نفسي، وملكت على حسي، وأنت بعض شخصي، فما أدري لم ومم أقول، عش يا فتى واحي، ولا تقل مطلقا شكرا يا مولاي، ولكن عش ولتكن لك الحياة.

"وسل سمبلين من العطايا ما تشاء، وما يليق عندي بسخاء، ويجمل منك بهذا الشفاء، فإني معطيكه، ولو كان أسيرا. أو كان فيهم كثيرا".

وقد أراد سمبلين بقوله أنه سوف يهبها عطاء أنه قدر أن يهبها أي شيء تسأله، مهما كان شأنه وخطره.

ولما كان الكبير في الأسرى، وأسماهم قدرا كما قال، هو لوسيوس، وكان هو ذاته الذي ناشد الملك أن يخلي عن ايموجن، توقع الحاضرون

جميعا أن تكون الهبة التي سوف نسأل الملك إياها، هي التخلية بين لوسياس والحياة.

ولكن ايموجن كان لها مقصد آخر، فقد رأت وتبينت في الأسرى، بوستيوماس، بل يواكيمو كذلك وأبصرت في إصبع هذا الخاتم الألماسي ذاته الذي كانت قد أعطته إلى بوستيوماس من أعوام ماضية، ذلك الخاتم الذي أقسم ليبقينه في أصبعه أبدا، كرمز من الوفاء لها والإخلاص.

فحدقت ايموجن في يواكيمو عينيها وأنشأت تقول أنها لا تسأل الملك إلا شيئا واحدا، وهو أن يحمل يواكيمو على الاعتراف بالوسيلة التي أتاحت له الظفر بذلك الخاتم الذي يلبسه في أصبعه.

فوجه الملك إلى يواكيمو نذيرا ليعذبه عذابا أليما إن هو لم يعترف اعترافا تاما ومن ثم أنشأ هذا يقص قصة رهانه مع بوستيوماس والخطة السافلة التي دبرها للظفر بالخاتم.

وأدرك بوستيوماس أخيرا الحقيقة. وكان واقفا في ناحيته وتبين له فجأة أن ايموجن كانت أبدا ولا تزال المخلصة الوفية بعهده. وأنها الزوج النقية البريئة التي كان قد أمر بقتلها، فما أن تذكر ذلك كله حتى ثار حنقه على يواكيمو واشتدت به الندامة وتأنيب الضمير على ما اقترف هو وأثم، وتجاوز الندم في نفسه كل حد، ولكنه على تلك اللحظة لم يكن تبين بعد، أن هذا الوصيف يخفي من وراء ثيابه وبزته، ايموجن زوجته.

ولكن ايموجن لم تطق صبرا على رؤية زوجها المحبوب هكذا مشدوها

حزينا موجعا. فكشفت له عن خافية أمرها، وأحالت أمله وعذاب نفسه طمأنينة غير مصدقة، وفرحة من تناهيها ومباغتتها لا تعتقد. فقد ردت إليه الروح التي كان يحسبه قد قتلها والضر الذي ظنه قد أحدثه لم يحدث أبدا.

وما كان أشد اغتباط سمبلين كذلك حين وجد ابنته الغائبة قد عادت إليه فقد بلغ من فرحته بها أنه راح يوافق غير متردد على زواجها ببوستيوماس الذي أصبح معترفا به عنده كزوج ابنته.

وقد بقى أمام ملك بريطانيا مزيد من فرح ادخره الزمان له، فإن ولديه وهما شقيقا ايموجن كما تذكر جيدا، كانا قد خطفا وهما في المهد صبيان.

وعندئذ تقدم بلاريوس وقال للملك وهو إليهما مشير، أنهما والده المخطوفان من طوال السنين.وعرف الملك أن ولديه هذين، والشيخ بلاريوس الذي تبناهما، هم ثلاثتهم الذين ردوا أخيرا الهزيمة نصرا.وعرفانا بجسام فعالهم، واغتباطا بمستعاد ولديه، صفح عن بلاريوس وغفر له جرمه حين استرق ابنيه.وأدخلهم في عداد حاشيته وأهل بيته مرحبا بهم مكرما لهم.

واستجاب الملك لسؤال ايموجن فخلى عن حياة لوسياس القائد الروماني وبالاشتراك معه وضع الملك صلحا مع الدولة الرومانية، أمنت بريطانيا من بعده الغارة عليها إلى أجل بعيد.

بل حتى الكذوب المحتال يواكيمو مضى بغير عقاب ما دام قد اعترف بالشر الذي أحدثه، وأقر بالأذى الذي أتى، وما دام الأذى قد استحال خيرا.

يوليوس قيصر

يوليوس قيصر هو أول أباطرة روما وحكامها المطلقين، وكانت روما من قبله تحكمها هيئة من أفاضل مواطنيها، وكانت عادة الرومان ومفخرتهم أن يضعوا صالح بلادهم فوق مصالحهم الذاتية، ولكن حين أخذت روما تزداد قوة على الأيام ويمتد سلطانها شيئاً فشيئا على أمم كثيرة وشعوب عدة، لم يلبث الرومان أن فقدوا كثيراً من وطنيتهم القديمة. وبدلا من أن يعملوا في سبيل الصالح العام راحوا ينقسمون على أنفسهم، ويتفرقون شيعاً وأحزابا، لكل شيعة رئيسها، ولكل حزب زعيمه، وظلوا أبداً فيما بينهم يشتجرون ويتنازعون، وكل يلتمس مصلحة حزبه ويبتغي المنفعة لجماعته..

وقد كان النزاع عند ابتداء هذه الرواية بين زعيمين قويين، هما: بومبي ويوليوس قيصر، قد انتهى أخيراً بهزيمة بومبي ووفاته وعودة قيصر إلى روما، في فرحة النصر، وانتعاش الغلبة فأصبح أعظم رجل في الدولة سلطانا..

ولعله كان من الخير لروما في هذه المرحلة في تاريخها أن يحكمها فرد قوي متفان في سبيل خير الشعب، ولكن كثيرين لم يكونوا يرون هذا الرأي، أو يعتقدون هذا الاعتقاد ويريدون أن يبقى نظام الحكم القديم قائما..

فلما آب يوليوس قيصر إلى روما للاحتفال بانتصاره الأخير راح الشعب كعادته يستمتع بعيد عام فازدحمت الشوارع بهم، تحدوهم الرغبة الحارة إلى الهتاف على الملأ بحياة المنتصر وتمجيده وتكريمه..

وكانوا من عهد غير بعيد قدم احتفلوا بانتصارات كثيرة لبومبي حين غزا أقاليم مترامية الأرجاء في بلاد الشرق وفتحها لروما فتحاً مبينا، فإذا هم الآن يستعدون لمثل ذلك ونحوه لقيصر منافسه وصاحب الغلبة عليه.. وبينما كان أفراد الشعب مجتمعين في الشوارع، وقد تجملوا بزاهي الثياب واستقبلوا العيد بما يقتضيه من نفسية مرحة، إذ التقوا باثنين من ولاتهم، وكان هؤلاء الولاة أو الحكام من رجال الدولة الذين من أخص واجباتهم أن يرعوا مصالح العامة ويشرفوا على خير السوقة، فوقف هذان يخطبانهم ويوجهان اللائمة إلى الغوغاء والرعاع والمتسكعين فيهم، وعلى جحودهم فضل بطلبهم السابق، وهو بومبي.

قال أحدهما: "تباً لكم يا أهل القلوب الجامدة، أبناء روما الجفاة القساة ألم تكونوا تعرفون بومبي، لكم تسلقتم الجدر، وتسنمتم الأسوار وصعدتم البروج، وعلوتم النوافذ والشرفات، بل أعالي المداخن في الدور والبيوت محتضنين ولدانكم، محتملين فوق أذرعكم أطفالكم، ماكثين طيلة النهار في مواضعكم، صابرين مترقبين، لكي تشهدوا بومبي العظيم وهو يجتاز شوارع روما...؟"

وكان الولاة أن يخشون يظفر قيصر بتأييد الشعب ويستأثر بالسلطان وحده، فلم يشاءوا أن يتباهى الشعب في الجنوح إليه، ولذلك جعلوا يحاولون صرفهم عن الاجتماع والتجمهر لتحيته.

ودخل قيصر المدينة، وهو عائد من انتصاره في موكب عام يحف الكبراء من حوله، ويمشي الزعماء في ركابه، وكان معه مارك أنتوني الذي كان رئيس أركان حربه في فتوحه وغزواته، وبروتس، وكان عضواً كبيراً في

مجلس الأعيان، وصديقه الذي يثق به، ووليه الذي يسكن إليه. على أنه كان من بين الحافين من حوله من يضمرون له الحسد وينفسون عليه نجاحه وشهرته ومحبة الشعب له.

ولما كان من تقاليد روما وعاداتها القديمة أن يحكمها مجلس الأعيان "السناتو"، كان يلوح من الغريب أيضاً، ومن الخطر كذلك أن يتولى رجل واحد مقاليد الدولة، ويعهد إليه بشئون البلاد، مهما كان هذا الفرد الأوحد من أصلة الرأي! والحكمة والروح الشعبية.. ولهذه العوامل كان لقيصر أعداء كثيرون بين معاشر الأعيان.

وفيما كان موكب الاحتفال بتكريم قيصر يخترق الشوارع إذ أقبل عراف يشق الصفوف إلى حيث كان قيصر! منادياً إياه باسمه مكرراً على سمعه مرتين نذيره بقوله:

"حذار من اليوم الخامس عشر من شهر مارس!".

ولكن قيصر صرفه عنه، ولم يستمع له، إذ أعده مخرفاً صاحب أوهام وترهات.

وانطلق الموكب في طريقه.. غير أن بروتس لم يكن يحس وهو في الموكب انبعاثاً إلى المرح ولم يكن يستشعر الانشراح، فانتبذ من المهرجان ناحية! وما لبث أن وجد نفسه مصادفة في خلوة مع أحد عارفيه، وهو رجل يدعى "كاسياس"، كان في الظاهر صديقاً لقيصر مواليا، وإن كان في الباطن يطوي الجوانح على عداوته..

وдار الحديث بين كاسياس وبروتس فما لبث كاسياس أن تبين أن بروتس على الرغم من عظيم محبته لقيصر وصداقته كان يخشى أن يعرض الشعب عليه الملك وينادي له بالإمارة، فيسيء قيصر استعمال سلطته ويستغل ملكوته.

ولهذا راح كاسياس ينتقص قيصر في حديثه ويحاول إثارة الشك في نفس بروتس من جهته والارتياب به فأنشأ يقص عليه كيف تحداه قيصر في ذات يوم اشتد قره، وابترد جوه، في السباحة، في نهر التايبر إلى حد معلوم، ونقطة معينة، فلم تلبث قواه –بحسب رواية كاسياس– أن خارت وكاد أن يذهب في المغرقين لولا أن بادر إليه كاسياس فأعانه على الرجوع إلى الشاطئ ناجيا. بل ذهب كاسياس يصطنع خلال حديثه أقاصيص وروايات أخرى مصوراً فيها قيصر خلواً من الهمة والشجاعة والإقدام، مبيناً ألا حق لمثله في السيطرة على الآخرين.

فكان مما قاله:

"أرأيت إليه يا صاح كيف ضاقت الدنيا عن منفرج قدميه، كأنه التمثال الضخم والنصب العظيم، ونحن الصغار الأقزام نمشي من تحت ساقيه الفسيحتين الضخمتين، ونتلفت فيما حولنا لنلتمس لأنفسنا قبوراً تواري عارنا ولحوداً تحجب خزينا...

"إلا أن الناس أحياناً لمتحكمون في مصائرهم، مخضعون الحظوظ لمشيئتهم فالذنب يا عزيزي بروتس ليس ذنب طوالعنا ونجومنا، ولكن الذنب ذنبنا. في أننا الأسافل المتخلفون..".

وانتهى كاسياس من هذا الكلام ونحوه إلى القول بأن الرومان الشريف العزيز النفس لا يمكن أن يسمح لفرد ما أن يستعبد أمة الرومان.

وسمع بروتس ذلك التحذير والتنبيه. فتأثر به إذ وافق هواجسه. وطابق مخاوفه. ووعد كاسياس بأن يتروى في هذا الأمر ويفكر فيه مليا وراح يناجي نفسه قائلا:

"إن بروتس ليؤثر أن يكون قروياً بسيطاً على أن يعد ابناً لروما في ظروف محزنة كهذه الظروف التي يحتمل أن يجرها هذا العهد علينا...".

وقد أراد بقوله "الظروف المحزنة" احتمال قيام الطغيان وانقلاب قيصر طاغية..

واستطال بهما الحديث واشتد جده بينما كانت أصداء صيحات الشعب وهتافه تتردد من بعيد حيث تقام الألعاب وضروب اللهو. تكريماً لقيصر واحتفالا به.

وأخيراً شوهد الموكب عائداً من ساحة الألعاب، فغادر صديق لكاسياس يدعى كاسكا صفوف الزحام، ووافاهما، وذهب يقص عليهما ما حدث في أثناء عرض الألعاب، واصفاً كيف عرض مارك أنتوني تاج الملك على قيصر ثلاث مرات وأنشأ يعقب على الوصف بقوله أن قيصر إنما رفضه لا لشيء سوى أنه لم يكن واثقاً من أن الشعب يحبذ ذلك ويرتضيه، فازداد بروتس مما سمع من قول كاسكا توجسا من مطامع قيصر ومطامحه.

ولما انصر كل منهم إلى داره بعث كاسياس بكتب غفل من التواقيع

إلى بروتس، موهما بأنها مرسلة من أفراد عديدين، وكلها تشير من طرف خفي إلى أن روما تتطلع إلى بروتس وترتجيه ليحميها من مطامع قيصر ومآربه.

على أن كاسياس في الوقت ذاته كاشف كاسكا بتفاصيل مؤامرة مدبرة للقضاء على قيصر، فرضى كاسكا الاشتراك مع المتآمرين، وراح الرجلان يضعان معا الخطة للعمل جهدهما على حمل بروتس على تزعم تلك المؤامرة.

وكان مما قاله كاسياس لكاسكا:

"هلم بنا، يا كاسكا نذهب معاً قبل مطلع النهار لنزور بروتس في داره فقد كدنا نستحوذ على نفسه إلا قليلا، ولن يلبث عقب المقابلة التالية أن يصبح في يدنا بكليته..".

ولم يكن السبب الذي دعا كاسياس إلى اختيار بروتس خاصة لقيادة المؤامرة هو ما لبروتس من عظيم النفوذ فحسب، ولكن لأنه أيضاً كان محترماً من الكافة لاستقامته وقويم أخلاقه، ويوم يرى الناس رجلا كبروتس في مثل رفعة نفسه وسمو خاطره، ينقلب على قيصر ويرتد عدوا له، يعتقدون أنه لابد من أن يكون على حق في عدائه، ولا يخامرهم شك في عدالة القضية.

وفي تلك الليلة بالذات، التي تسبق اليوم المشئوم، اليوم الخامس عشر من مارس، لم يغمض لبروتس جفن، وبات مسهداً لا يطاوعه الكرى.

إذ راح ضد نزعاته الطبيعية، وميله الفطري يرسم في رفق فكرة خطيرة وينتوي نية صعبة المنال، وهي القضاء على قيصر قبل أن يقضي قيصر على الجمهورية.

نعم إن قيصر كان صديقه، ولكن لعل من الخير، أن يقتل المرء أي إنسان حتى ولو كان صديقه، إذا كان هذا الصديق يحتمل أن ينقلب خطراً على الدولة.

لقد كان قيصر راغباً في حمل التاج، ومعنى هذا أنه كان يريد أن يكون حاكما بأمره، فليس ثم من سبيل إذن لمنعه من التفرد المطلق بالحكم غير قتله والإيداء بحياته.

جالت هذه الخواطر ونحوها في خلد بروتس، وأنه كذلك إذ دخل عليه خادمه يحمل إليه رقاعا ورسالات عثر عليها عند نافذة غرفة سيده وكانت هذه الرقاع هي الكتب الغفل التي زيفها كاسياس، فلما قرأها بروتس ظنها مرسلة من أفراد حقيقيين من أبناء الشعب وعددها دليلاً على مبلغ اعتماد الشعب عليه في إنقاذ الدولة من خطر قيصر ومطامعه.

وبينما كان مستغرقا في تفكيره ونجوى نفسه إذ جاء كاسياس والمتآمرون معه متسللين سراً إليه لمقابلته..

وما زال كاسياس به يستميله من ناحية الشعور بالواجب حتى استحوذ أخيراً عليه، واستولى في النهاية على مشاعره، وانثنى الجمع يكيدون كيدهم، ويدبرون تدبيرهم، فاقترح بعضهم أن يقتل القوم مارك

أنتوني أيضاً لأنه كبير قواد قيصر ورئيس جنده. ولكن بروتس على الرغم من نصيحة كاسياس قرر تركه والإبقاء عليه إذ بدا له أن مارك أنتوني لم يكن "سوى عضو من أعضاء قيصر وشلو من أشلائه، فإذا ذهب الجسم تداعت لذهابه الأعضاء". ولكن كاسياس، كان أعلم من بروتس بأخلاق الرجال وأصح حكماً وأبعد نظراً وكان ذلك يرى أن أنطوني دساس ذكي وداهية أريب وأنه قد يصبح فيما بعد متعباً لهم خطراً عليهم.

ورضي أحدهم وهو ديسياس الذهاب إلى قيصر والتأثير في نفسه لحمله على الحضور في ذلك اليوم إلى الكابيتول، مقر الحكم، إذ خشي المؤتمرون أن يتخلف قيصر. فاتخذوا هذه الحيلة ليستوثقوا من حضوره.

وانصرف القوم بعد أن اتفقوا مع بروتس على المكان والتاريخ الذي ينفذون فيهما ما قد بيتوه وكانت بورتسيا زوج بروتس. التي توليه الحب والإخلاص والوفاء، قد لاحظت في الليلة الماضية على وجه زوجها ومسلكه أمارات الذهول وانشغال البال وسمات الهم والقلق.

فلما استيقظت ليلا، عقب قدوم المتآمرين الكائدين، فطنت إلى انصرافه من المخدع، وسمعته عرضاً يتحدث في حجرة أخرى، مع زائرين عديدين، في تلك الساعة المتأخرة من الليل، على غير المألوف فقلقت وانشغل منها البال كثيراً، وما كاد الحديث ينتهي وتنقطع الأصوات، ولم يعد بروتس إلى مخدعه، حتى نهضت من فراشها، فمشت إليه، وناشدته إلا ما نبأها بما يساوره، وكاشفها بما يخامر خاطره، إذ أليس لزوجه وشريكة حياته الحق في مقاسمته أسراره، ومشاركته في خبيئة صدره وخفايا نفسه.

وفيما كانت بورتسيا تحاول إقناعه بوجوب مكاشفتها بهمومه إذ قطع عليهم الحديث قدوم زائر جاء من قبل المتآمرين الآخرين.ولم يكن هذا الرجل قد رضى الانضمام إليهم وكانوا يريدون من بروتس أن يستميله إلى جانبهم ويضمه إلى جمعهم.

وبينما كان بروتس يكاشف الرجل بأمر المكيدة خطر له إخلاص زوجه له ووفاؤها الثابت، فلم يزده التفكير في حبها وولائها إلا تمسكا بعزمته الجديدة وتشددا من إنفاذ نيته.

وراح يدعو الآلهة مخافتاً "أن تجعله خليقاً بهذه الزوج السامية".

وكما كانت هذه الأحداث تجرى في تلك الليلة بدار بروتس، كان مثلها في الوقت ذاته يجرى في قصر قيصر، مذ كانت زوجه "كالبيرنيا" قد رأت في المنام أحلاما مزعجة منذرة بسوء، فذهبت تحاول العدول به عن الخروج إلى الناس غداة اليوم التالي، قائلة له أنها قد سمعت بأن نذرا سيئة قد شوهدت وعلامات شؤم قد رؤيت وأن "لبؤة قد وضعت في الطريق، وقبوراً تفتحت فلفظت موتاها، وأشباح جند نارية مريعة قد ترامت فوق السحب متقاتلة، صفوفا وكتائب، فعل الجند تماماً في أوضاع الحرب وصورها، وأن الدماء راحت تتساقط على الكابيتول كالرذاذ متقاطرة، وأن جلبة الحرب وضوضاءها جعلت تدوي في السماء وأرجائها وأن الخيل صهلت والأموات زفرت وأنت، وأن الأشباح والعفاريت ذهبت تطوف الشوارع متصايحة زاعقة مولولة".

وأقبلت بورتسيا تذكره بما كان الناس يعتقدونه في الأزمنة الغابرة، وهو أنه حين يموت المتسولة والصعاليك لا تنبعث في السماء شهب، ولا تشاهد على رقعتها نجوم مذنبة –أي ذوات أذناب– ولكن السموات ذاتها تنعي الملوك شهباً منبثقة، وأضواء متوهجة ولهبا...".

ولكن قيصر استخف بنذر زوجه وتشاؤمها وأبى التأثر بها وأنشأ يقول: "الجبناء يموتون عدة مرات قبل آجالهم. والشجعان لا يذوقون طعم الموت إلا مرة واحدة".

وعندئذ تلقى قيصر رسالة من الكهنة والمتطيرين الموكلين بأن يتعرفوا بواسطة طقوس خاصة أنسب الأوقات لتنفيذ جسام الفعال وعظائم الأمور أو أبعدها من الملائمة، وفي تلك الرسالة أبلغو قيصر أن اليوم لا يلائم عقد مجلس الأعيان.

وكاد قيصر يستسلم لرجاء زوجه وتوسلاتها المتكررة لولا أن دخل عليه أفراد المؤامرة وهو ديسياس ليصطحبه إلى دار مجلس الأعيان فقص قيصر عليه بعض ما رأت "كالبيرتيا" من الرؤى والأحلام، وهو أنها حلمت بأنها رأت تمثال قيصر ينفجر دماً وأن عدة أناس من الرومان حداد الشهرة أقبلوا باسمي الثغور يغسلون أيديهم في ذلك الدم ويغمسونها فيه. وأن كالبيرتيا قد أوجست أن يكون هذا نذيراً بموت قيصر، ولكن ديسياس بعد أن سمع ذلك علله بتعليل بارع وحمله على معنى لطيف، فقال:

"إن انبجاس الدم من تمثالك عيونا متفجرة واغتسال عدة أناس من الرومان فيه باسمين يشير إلى أن روما العظيمة سوف تستمد منك دماً جديداً منعشاً".

وأردف قائلاً: أن مجلس الأعيان قد قرر عرض تاج الملك على قيصر في هذا اليوم بالذات، فغيابه بحجة أن زوجه رأت حلما سيئا يروح أبعد ما يكون من الكياسة والذوق.

ومن ثم ذهب قيصر في حرسه الذي جاء ليحف من حوله، وما درى أن هذا الجرس يجمع أولئك الذين انتووا القضاء على حياته.

وفي ذلك الوقت كانت قد سرت إشاعات وبدرت بوادر تنم عن المكيدة المدبرة. وكان في روما فيلسوف من المعتزلة، يدعى أرتميدوراس لعله كان قد أدرك حاجة العصر وفطن إلى مقتضيات الزمن وتوقع ما قد يعقب موت قيصر من الخطوب والمحن فسعى جهده في تحذيره خلال كتاب أعده. وقد ذكر له فيه أسماء زعماء المؤامرة، ونبأه بأن أولئك الرجال قد جمعهم فكر واحد على مناهضة قيصر ومقاومته.

وانتظر ارتميدوراس في الطريق حتى يمر قيصر في غدوته إلى الكابيتول فيدفع بالكتاب إليه، فما أن مر قيصر حتى تقدم إليه فدفع في كفه كتابه، ولكن بادره ديسباس مستبقاً بكتاب آخر، فأصبح هذا مقدماً وذاك من تحته، وذهب نذير أرتميدوراس سدي.

ولما وصل قيصر إلى الكابيتول انتحى، أحد المتآمرين بمارك أنتوني ناحية متظاهراً بأنه يريد استشارته في شأن خاص بينما تقدم آخر إلى قيصر بعريضة ليشغله بها. وقد التمس فيها العفو عن عين من الأعيان كان منفياً في البلاد... وفيما كان قيصر يجيب على العريضة، دلف نحوه المتآمرون متظاهرين بأنهم يريدن تأييد صاحب العريضة في مطلبه. وبإشارة من كاسكا

اندفعوا نحو قيصر فاهووا عليه طعنا متواصلا ليذيقوه الموت. وعلى طعنة بروتس. أرسل قيصر صيحة عتب وسقط قتيلا خامد الأنفاس.

وحار المتآمرون بعد ارتكاب فعلتهم ماذا هم صانعون. إذ خشوا غضب الشعب وتلفتوا حولهم للبحث عن مارك أنتوني. ولكنه كان قد فر إلى بيته هارباً من خيفته على حياته، ووقف الأعيان الذين لم يأتهم من قبل علم بهذه المؤامرة مشدوهين تدور أعينهم فيما حولهم مروعين. وكان فريق كبير منهم. بل لعل أكثرهم، أولياء لقيصر وعلى صلة حسنة به فلم يتبينوا هل في نية هذا الجمع المسلح من القتلة أن يقتلوا قيصر ومريديه كما قتلوه، ولهذا راح بروتس يحاول تهدئة روعهم قائلا أن لا أحد منهم يراد بسوء وأن جريرة قتل قيصر لا يتحملها غير قاتليه.

وأخذ بروتس يفكر كذلك في تأثير فعلتهم في نفوس الشعب إذ من المرجح أنهم سوف يقابلون بالاستياء قتل بطل أصاب عندهم الحب والإعزاز وسوف يثأرون من قتلته فلتهدئة خاطر الشعب واكتساب رضاه إذا أمكن رأى بروتس أن يذهب المتآمرون في الحال إلى السوق العامة ومواجهة الشعب وبسط الأسباب التي حدث بهم إلى تنفيذ فعلتهم. وبينما هم يتشاورون إذ أقبل رسول من قبل مارك أنتوني يبلغهم عقه أنه يرجو منهم أن يعدوه بأنهم غير قاتليه وأنه على استعداد للموافقة على قتلهم قيصر إذا ثبت أن الخير كان في قتله، فأجاب بروتس على الرسالة بإعطاء أنتوني الأمان فلما رجع هذا إليهم وطلب في شجاعة غليهم أن يقتلوه إذا شاؤوا بجانب قيصر، وعده بروتس الأمان والمودة فصافحهم واحداً بعد واحد علامة القبول وقال.

– إنني أودكم جميعاً، وأحبكم جميعاً، على رجاء واحد، وهو أن تبينوا لي علام وفيم كان قيصر خطراً".

وعليه أجابه بروتس إلى سؤاله حين طلب السماح له بأن يتحدث إلى الشعب على رؤوس الأشهاد عند تشييع جنازة قيصر، ولكن كاسياس وكان يستريب بأنتوني همس في أذن بروتس معارضا في الاستجابة إلى ما طلب ولكن بروتس أجاب بأنه سيتقدم بنفسه أولا فيخطب الناس ويشرح لهم الأسباب التي دعتهم إلى تنفيذ فعلتهم، وراح يستنزل من أنتوني الوعد بأن لا يذكر قتلة قيصر بسوء.

ولكن ما كاد أنتوني يخلو إلى نفسه. حتى ثارت ثائرة نفسه على القتلة حين وقف على مشهد من جثة صديقه وأنشأ يقول:

"أيتها القطعة الدامية من الصلصال، اغتفري لي حلمي ورفعتي وتوددي إلى هؤلاء السفاكين، فأنت رفات أنبل رجل حوته الحياة على مر الزمان".

وانثنى يصف الحروب الداخلية والفتن والنكبات والويلات التي لا شك في وقوعها بعد مماته.

وراح يتخذ كذلك إجراء حاسماً وذلك أنه كان لقيصر في ذلك العهد ابن أخ يدعى أوكتافيوس يقيم غير بعيد من روما، وقد عرف على حداثة سنه بعلو همته وعظيم مقدرته، فبعث أنتوني سراً إليه ينبئه فيها بما جرى ويناشده أن يستعد بجيش معه.

وما لبث رفات قيصر أن حمل إلى الساحة العمومية وبدأ بروتس يخطب الشعب، شارحا في منطق سديد؛ وقول رصين، كيف أنه على الرغم من صداقته لقيصر، قتله، لأنه كان أخا مطامع، قائلا "لا لأنني أحببت قيصر أقل مما كنت أحب، ولكن لأنني أحببت روما أكثر مما كنت لها محبا".

وانثنى يسأل سامعيه: أفكنتم تفضلون أن يبقى قيصر حياً وتموتوا جميعاً عبيداً. على أن يموت قيصر لتعيشوا أنتم أحراراً؟

واستطرد يقول: "أنه لا ينكر أن قيصر كان ناجحا وشجاعا وأنه كان صديقاً له كريماً عليه. ولكن ينبغي للمرء أن يقتل حتى أعز أحبابه من أجل روما وخيرها في سبيل إنقاذها من طغيان الطغاة وجبروت المتجبرين".

وما كاد ينتهي من خطبته وسط هتاف الشعب ومظاهر استحسانه حتى وصل أنتوني مع آخرين يحملون جثمان قيصر. فانصرف بروتس بعد أن أهاب بالشعب أن ينتظر حتى يخطبهم أنتوني.

وحين بدا أنتوني يتكلم، لم يكن شعور السامعين معه، ولكنه ما لبث أن أبدى براعة عجيبة. ومقدرة مدهشة، في السيطرة على أذهان العامة، واختلاب الباب الجماهير، إذ بينما عمد بروتس في محاولة إقناعهم إلى الحجة والمنطق، ذهب هو إلى تحريك المشاعر، وإثارة العواطف في أنحاء صدورهم، مردداً القول بأن كل ذنب قيصر وجريمته التي اتهم بها أنه كان "أخا مطامع" وهو الرجل الذي عرفوه منفقاً عن سخاء، صارفا المال عن بذل لا التماس متعة نفسية، ولكن التماس خير الشعب ورفاهيته، بل هو

الرجل الذي أخلص الود والحب للفقراء من مواطنيه، والمكدودين من أبناء أمته وأنه الرجل الذي رفض قبول الملك حين عرض في الملأ ثلاثا عليه.

"أفذلكم دليل طماعيته، ومع ذلك يقول بروتس أنه كان أخا طمع! وبروتس رجل شريف".

ولما رأى أنتوني أن كلامه قد بدأ يؤثر في نفوس سامعيه، انثنى يقدم أمام أعينهم دليلا آخر على أن قيصر كان أخلص الناس إليهم. وكان ذلك الدليل الجديد ورقة رفعها في يده وأنشأ يقول:

– إليكم رقا مسطوراً عليه خاتم قيصر في حجرته الخصوصية وتلك هي منه الوصية، ولو سمعها الشعب، وأرهف الأذن لما حوت من توصية، إذ استميحكم عفواً، ليست لي في قراءتها نية، إذن لأقبلوا على جثمان قيصر يمطرون جراحه قبلات ندية، ولتدافعوا يغمسون مناشفهم في دمائه المقدسة الطاهرة النقية، لا بل لراحوا يلتمسون شعرات من خصلاته تتكون عندهم تذكارات على الدهر باقية".

فما إن بلغ أنتوني من خطبته هذا القدر حتى كان أفراد الشعب قد ثارت ثائرتهم، وهاجت حفائظهم وأشتد سخطهم، على قتلة قيصر الذين مازال أنتوني يدعوهم بلباقته وكياسته وبراعته بقوله "الرجال الشرفاء الذين طعنوا قيصر بخناجرهم وسيوفهم.

وانثنى يزيد حماستهم اشتعالا، وغضبهم تأججاً واستعاراً، يكشف الأغطية عن الجثمان المثخن جراحا مشيراً إلى طعنات الخناجر منه، مناديا:

"ألا ترون إلى ما صنع الحسود كاسكا بقدة من سيفه، وهنا جاءت طعنة المحبوب بروتس، تلكم هي أقسى الطعنات جميعا وأخلاهن من الشفقة والرحمة مضربا".

وأشار إلى جرح قال أنه من خنجر بروتس. وكذلك ما كاد ينجح في إثارة غضب الجماهير على القتلة حتى عاد يسكن من ثائرتهم لحظة ليشير إلى وصية قيصر وعهده، وراح بعد اصطناع التكره وإظهار التمنع يتلوها عليهم، فقال " إن قيصر فضلا عن توصيته لكل مواطن من أبناء روما بقدر من المال، قد ترك لكم من بعده جميع أراضيه وآجامه وبساتينه التي استنبتها أخيراً على هذه الضفة من التايبر. تركها جميعا لكم ولذريتكم من بعدكم، جيلا بعد جيل، حتى تفنى الأرض ومن عليها، لتكون رياضكم ومناعمكم ومتنزهاتكم العامة. ذلكم هو قيصر. فمتى يأتيكم الدهر بمثله؟! وأين تجدون له ضريبا؟!

فهاج غضب القوم وأشتد بهم الحنق فتراكضوا يطلبون الانتقام من القتلة ويحرقون ديارهم. وفي طريقهم، أتوا على شاعر وديع يدعى لسوء حظه "سينا" وكان هذا اسم أحد المتآمرين، فكان مجرد التشابه في الاسم لأنه سم القاتل البغيض، كافيا عند الجماهير لصب جام غضبهم عليه، وهو البريء لا ذنب له. فمزقوه إربا.

أما بروتس وكاسياس والقتلة الحقيقيون فقد ترامى إليهم قبل فوات الأوان نبأ غضب الشعب وهياجه، فدبروا لهم سبيل الفرار من المدينة.

وفيما كانوا مغادرين روما من باب، كان أوكتافيوس قد دخلها من

باب آخر في حشد مسلح من أتباعه ومن ثم أخذ هو وأنتوني يحولان الموقف لمصلحتهما الخاصة، فقررا قتل كل عضو ذي شأن من أعضاء مجلس الأعيان وكل شخص ذي خطر قد يقف في طريقهما، وبعد أن تدانت لهما بالقسوة، والعنف والعدوان السيادة على روما، جمعا جيشاً لمهاجمة جيش بروتس وكاسياس فكان مصرع قيصر بدلا من أن يقضي على الطغيان، سبباً في قيامه وما وقع إلا ليجلب حكم إرهاب ويسوق طغيانا وعدوانا".

وانقضت فترة طويلة قبل أن يتلاقى الجمعان. وكان بروتس وكاسياس قد جمعا جيشهما من الأقاليم الشرقية ولبثا ينتظران في مقدونيا حتى يبدأهما أنتوني وأوكتافيوس بالهجوم. ولكن لم يلبث أن وقع الفشل في جانب بروتس وصاحبه ودب الخلاف، فقد أبى أولهما جمع المال المطلوب لهذه الحرب بالعنف أو الظلم والإرهاق لأنه ما قتل قيصر إلا ليمنع ذلك كله ويحول دونه، بعكس كاسياس إذ كان عملياً أكثر منه- فلم يكن ليتردد في استخدام أية وسائل في سبيل تحقيق مطلب جريء وغاية بعيدة المنال.

وفضلا عن ذلك، جعل بروتس وكان فيلسوفا أكثر منه رجل أعمال وبراعة احتيال، يصدر قرارات خاطئة في توجيه سير القتال، غير مستمع إلى نصيحة كاسياس، ولا آخذ برأيه.

فكان هذا يسلم له فيما يراه، بالنسبة لإعجابه ببروتس من جهة قوة شكيمته وضبط نفسه واحترامه للواجبات، فضلا عن إدراكه أنه أسمى منه قدرا وأعظم منه شأنا.

وأخيراً تدانى الجمعان في سهول فيليبي بمقدونيا. فحاول بروتس أملا منه في حقن الدماء أن يعقد اجتماعا للمفاوضة مع قواد جيش العدو. فكان ما أراد ولكن لم تجد المفاوضات نفعاً وتفرق القواد كما اجتمعوا ونشب القتال.

واشتدت الوطأة على قوات كاسياس في بداية القتال، وبدلا من أن يتقدم بروتس لنجدته أخطأ الرأي بأن أنفذ جناحه للحمل على قوات أوكتافيوس.

وحين وجد كاسياس أن أنتوني قد أدرك الغلبة عليه آثر الموت بيده على الوقوع في قبضة العدو.

وفي الوقت ذاته كان بروتس مندفعاً نحو أوكتافيوس وجيشه. ولكن قوات أنتوني التي خرجت من المعركة بنصر بعث فيها النشاط. وأرسل في نواحيها وقدة الحماسة. بادرت إلى نزول الميدان فقلبت مصير القتال، وغيرت سير المعركة.

ولما رأى بروتس آماله جميعاً قد تحطمت، ختم حياته بيده.

ولعل بروتس قد تبين له بعد هذا كله أنه بقتل قيصر لم ينقذ قضية الحرية.

ولما وقف أنتوني على جثمان بروتس جاشت نفسه وتأثرت مشاعره فراح يرثيه قائلا:

– لقد كان هذا أنبلهم جميعاً وأسماهم نفساً.

وما فعل المتآمرون الآخرون ما فعلوا إلا عن حسد لقيصر العظيم وموجدة عليه، أما هو فما انضم إليهم، ولا رضي أن يكون فيهم إلا عن رأي اعتقده حقاً، ولغرض عام فكر فيه، ومصلحة قومية ابتغاها.

لقد كانت حياته وداعة ولطفا. وكان طيب العنصر، حتى لتنهض الطبيعة فتهيب بالعالم كله:

"لقد كان هذا رجلا".

تيمون أثينا

كان تيمون سيداً من سادات أثينا وجنديا مشهوراً، ورث ثروة عريضة، وعرف بالغنى وأشتهر بالجود، يفتح أبواب بيته لكل وافد ويرحب بكل مسترفد، ويحبو بالهدايا أصحابه وعارفيه ويعين المحتاج ويساعد المعوز الفقير.

وكان التجار والباعة يتزاحمون على داره ويظفرون بما يرجون من أثمان أغلب ما تكون أعلى بكثير من القيمة الحقيقية لسلعهم ومعروضاتهم.

وجعل الناشئون من الشعراء والمبتدئون من أهل الفنون يلتمسون عنده رأيا حسنا عن رواياتهم ونزكيه لألواحهم وصورهم. وكانوا جميعاً يعودون غالبا فوق البيعة بأعطية من ذهب وكان أقرانه من السادات والأشراف يظفرون بنصيب وافر من كرم ضيافته.

وكان العالم يبدو في عين تيمون المجدود العريض الثراء حافلا بالأخيار والطيبين فالتف من حوله عديد من الصحاب والخلان. وحين تبسم الدنيا لنا لا يسهل علينا التمييز بين الصادقين من الصحابة والخلطاء. غير أنه كان بين الذين يختلفون إلى حلقة تيمون ويكثرون التردداد عليه عدة أناس هم أكثر حبا لما له منهم لذاته، فمثلا كان منهم "فنتدياس" وهو رجل من أهل المراكز والأخطار، استقرضه يوما قدراً كبيراً من المال لسداد دين عليه ولكنه حين أيسر فيما بعد واغتني عقب وفاة أبيه لم يحفل بالوفاء لتيمون بما عليه.

وكان ثم آخرون جعلوا يتقدمون إليه بالهدايا. علما منهم بأنه سيردها بأحسن منها، ويجيب عليها بطرائف أعظم وأغلى قدراً، وقوم لم يستحيوا من ابتزاز المنح والهدايا منه بالملق الماكر، والمداهنة البارعة ولطف المدخل بالمديح عليه، أو بالإعجاب الخاص ببعض حلية قيمة يطمعون فيها، أو جوهرة يمدون الأعين إليها.

وكان فيهم فرد واحد من ملازميه كل يوم والغاشين مجلسه، ليس كمثلهم وشأنه غير شأنهم، وهو فيلسوف لذاع الحديث، قاسي التهكم. حريف النكتة، يرى في كل أحد منهم سوءاً، على حين يرى تيمون خيراً ويشهد من أمورهم ودواعيهم ما يعاب بينما لا يشهد هو فيه إلا الفضل والإحسان.

ولم يكن ذلك الفيلسوف يمل الكلام القارس في حقهم. والحديث الجاف عنهم، وذكر القبيح من شأنهم، ولكن أحداً منهم لم يكن يحمل كلامه محامل الجد، واعتاد تيمون أن يؤنبه على جفوته، ويعنفه على غلظته.

وعلى مر الأيام أخت ثروة تيمون الطائلة تتناقص وتقل رويداً رويدا من فرط جوده وإلحاحه على البذل، وإدمانه الندي. وكان "فلافيوس" وكيل دائرته الوصي الأمين، ومدير أملاكه وثروته المخلص في خدمته، كثيراً ما نبهه إلى هذا الأمر وحذره منه، ولكن نذره وتحذيراته ذهبت سدى ولم تجد نفعا، إذ جعل تيمون يقول أنه ما وجد الغنى إلا لإسعاد الناس وأنه ليس أمتع لنفسه، ولا أبهج لخاطره، من التوصل بغناه للترفيه عن الغير

ونفعهم، فكان فلافيوس، الصادق فيم حبة مولاه، يكاد يتميز من الغيظ حتى ليهجم الدمع في عينيه من فرط الحنق. كلما رأى الكذبة في مودتهم لمولاه والملقة له، والمتهالكين بالمداهنة عليه، يتناهبون ثروته، ويستنفدون بسرعة أمواله. وكان يتوقع أن يأتي يوم يتخلى فيه المال والصاحب عنه.

وأتى اليوم المنتظر حقا. إذ راح خرجه يتجاوز دخله، وجاء الدائنون يستوفونه ما عليه، ويلحون في مطالبته بسداد حقهم لديه إذ علموا بما لم يكن لتيمون بعد به علم، وهو أنه لم يبق من ثروته إلا النزر اليسير فأرادوا أن يستردوا ما لهم، قبل أن ينفد القليل الذي بقي من ماله.

وحين أمر تيمون وكيله بأن يتخذ التدابير لسداد دينه لهم، لم يكن ثم مال للوفاء به، ولا سبيل ميسورة للحصول عليه، إذ كانت أملاكه الواسعة قد بيعت أو انتزعت ملكيتها، حتى أمسى الباقي منها لا يكاد يكفي لسداد النصف من ديونه.

ولكن تيمون لم يغتم ولم يبتئس، إذ كان يتصور الناس رحماء كراماً أجواداً مثله ولم يكن في ريب من أن أصدقاءه العديدين سوف يبادرون إلى معونته كما أعانهم من قبل، بل كان يعتقد أنه ما عليه إلا أن يلمح لهم بحاجته فإذا هم مسارعون إلى تفريج ضائقته.

فلما نبأه "فلاييوس" بأنه قد التجأ إلى بعضهم يسألهم المعونة فرفضوا بخشونة، وأبو في غير رفق، لم يصدق تيمون أن الآخرين سيروحون جحدة كهؤلاء كنودين مثل كنودهم.

ولذلك راح يفاتح بحاجته الذين طالما أغدق عليهم من خيره وبره، ومكارمه وأياديه، ويسألهم قضاء طلبه واحداً بعد واحد، وكان أولهم في إظهار مبلغ عرفانه لسابق صنائعه، هو "لوسيللاس" إذ اوفد إليه تيمون رسولا يبلغه أنه يريد قرضا من المال فلما مثل الرسول في حضرته بادر إلى خاطره أنه قد جاء يحمل إليه هدية جديدة من قبل مولاه، فتلقاه بلهفة ودعا له ولمولاه أحسن الدعاء وسأله عن الصحة والسلامة. ولكن ما كاد يعلم أنه جاء مستقرضا حتى تغيرت لهجته، وتبدلت نغمته، فادعى أنه كثيراً ما حذر تيمون عاقبة سرفه، وبصره بخاتمة تبذيره، وإن كان يتغدى عنده ويتعشى بقصد تحذيره، من الإسراف في النفقة والإمعان في البذل والعطاء، فما كان تيمون يستمع إليه ولا أصغى لنذره.

وحاول لوسيللاس أيضا أن يرشو الخادم لكي يقول لمولاه حين مآبه إليه أنه لم يجده في داره.

فكان مما قاله له:

"إنك لتعلم جد العلم وإن جئت إلى مستقرضا. إن هذا الوقت ليس وقت أقراض، وبخاصة إذا كان القرض لمجرد الصداقة فحسب دون كفالة، وبلا ضمان، فإليك ثلاثة دراهم، هي لك أيها الفتى الطيب. فاغمز بطرفك وقل إنك لم تربي والسلام".

ولكن الخادم لم يغمز بطرفه مرتضيا هذه الدناءة بل رمى بالدراهم في وجهه وخرج يستشيط غضبا.

وأرسل تيمون أيضا رسولا إلى لوسياس وكان ممن أفاض عليه من قبل الخير وأغدق، ولكن الرسول لم يعد بأحسن مما عاد صاحبه.

وكان بعضهم قد نبأ لوسياس برفض لوسيللاس معونة تيمون فاستشعر العار من كفرانه وأبدى الاشمئزاز من جحوده. وقال لو قد أرسل إلي لما بخلت عليه بما سألنيه، وفيما كان ماضيا في هذا القول ونحوه إذ أقبل غلام تيمون يرجو منه قرضا.

فما أن سمع لوسياس ذلك حتى نسي تصريحاته الطيبة وبادر بأول عذر خطر له فقال:

"أنه قد أنفق كل ما كان عنده في شراء بيت، فهو لذلك يأسف جد الأسف لعجزه عن خدمة تيمون".

وانثنى إلى الرسول يقول:

– أبلغه عني أنني أعد عجزي عن تحقيق رجاء رجل شريف مثله أسوأ ما وقع لي من ألم، وشد ما نزل بي من مصاب".

وكان تيمون قد أنقذ "فنتدياس" من السجن في يوم من الأيام لدين لم يف به، فلما بعث يستقرضه رفض أن يمد إليه يد المعونة على فرط ثرائه، وعريض غناه.

وكان آخر من سألهم تيمون هو "سمبروتياس" فادعى أنه قد أهين ومست كرامته، لأن تيمون جعله آخر من يفاتح في حاجته وإن كان في مقدمة من تلقوا عطاياه.

وهكذا بدلا من أن يأتي أصحاب تيمون السابقون إليه ليساعدوه عمدو الآن إلى تجنبه، وعملوا على تحاميه، فلم تعد داره تزدحم إلا برسل التجار الذين ابتاع تيمون منهم سلعا ثم لم يستطع الوفاء بأثمانها، وإلا من الذين أقرضوه أموالا بالربا الفاحش، فجاؤوا يتصايحون مطالبين بها، وحل محل المديح والملق، الإلحاف في المطالبة والقسوة في استنجاز الأداء، حتى لم يكن تيمون يستطيع دخول بيته أو الخروج منه، إذ ما كان ليلقي في الروحة والغدوة إلا مطالبا بعد مطالب..

ولكن ظهر فجأة أن حاله قد تغيرت، والحظ معه قد تبدل، إذ أعلن السيد تيمون عن إقامة مأدبة عظيمة ومضى يلح في دعوة جميع أضيافه السابقين.

ولبى الأضياف الدعوة، وفيما كانوا جلوساً إلى المائدة وقد شهدوا صحافاً عديدة من الأطعمة مغطاة بأغطيتها تحمل إليها متوالية جعلوا يقولون فيما بينهم: "لم يكن تيمون إذن يريد منا استقراضا غير الضحك منا، والاستهزاء بنا" فأنشأ كل منهم في أثر صاحبه يلقي خطابا مستفيضاً أمام تيمون مليئاً بعبارات الأسف على أنه تلقى طلبه في وقت لم يكن المال عنده ميسوراً حاضراً، وإلا لتقدموا إليه طبعاً بما سأل، فنبأهم تيمون بأن لا عليهم من ذلك وأن يريحوا من هذا الأمر أذهانهم لأنه قد نسيه بتاتاً.

وعليه اتخذ المدعوون مجالسهم حول المائدة وقد سرهم أن ظفروا منه بصفحه عنهم بهذه السهولة العجيبة ولبثوا في لهفة يترقبون أن ترفع الأغطية عن هذه الأوعية والصحاف التي تتصاعد منها الأبخرة.

وعند ذلك دعا تيمون الآلهة أن تجزي كل نفس بما تستحق وأن تحرم من لا يستحق شيئاً. فبدت الدهشة على وجوه المدعوين وظهر الارتباك عليهم ولكنه لم يلبث أن أبان عن مقصده. إذ صاح بهم قائلا وقد شهدهم يرفعون الأغطية: "أرفعوا الأغطية أيها الكلاب والعقوا!"

يا للعجب مما رأوا!

لم يجدوا في تلك الأوعية شيئاً غير ماء ساخن!

فحملقوا الأبصار مبهوتين.

ولكنه تناول وعاء منها فرفعه بيده فقذف به في وجوههم وهو يدعوهم "الأصدقاء ولكن بأفواهم"، "الصحاب ولكن بقلانسهم المرفوعة، وركبهم الراكعة" و"عبيد المال، والمفتونين بالغنى، وطفق يسميهم بأسماء أخرى مماثلة، وينعتهم بنعوت محقرة ساخرة وطردهم من داره وهو يقذفهم بالصحاف ويرميهم بالأوعية حتى لقد كان من عجلتهم أن تركوا خلفهم قلانسهم وأرديتهم، "فرجياتهم" وكرائم الجواهر والحليات المزدانة بها –وهي بلاشك من هدايا تيمون وعطاياه الماضية– من فرط الفرح بالنجاة من غضبه والفرار من سخريته.

وكانت تلك آخر المآدب التي أقامها تيمون ونهاية ولائمة، فقد ودع بعدها أثينا وأهلها، واعتزل الناس ومجامعهم. وما كان يراه من قبل فيهم محض عشرة طيبة وألفة حسنة ولطفا وإحساناً عاد يلوح له محض جمود وجشع وطمع ولم يعد يطيق عار مجالستهم وخجلة مخالطتهم، بل لعن

المدينة البغيضة وأهلها، ودعا الآلهة أن تشتت شملهم، شبابا وشيباً، وصغاراً وكباراً وتفرقهم كل متفرق.

وتولى عن الناس وانطلق يريد الأحراش ويأوى إلى الغابات فإن الوحوش فيها على الأقل ليست في مثل قسوة الناس.

وفي ذلك يقول:

"سيذهب تيمون إلى الغابات والآكام، فإنه لواجد في مسارحها أقسى الوحوش أشفق من بني البشر وأرحم من الأنام، إلا لعنة الآلهة على أبناء أثينا، سواء من حوتهم داخل الأسوار. وخارج الأسوار، آمين يا آلهتي الراحمين الأخيار، واجعلي مقت تيمون ينمو فيغمر جميع البشر. علية وسلفة والكبار منهم والصغار".

وحزن خدم تيمون وأفراد حاشيته. والموالي في بيته، حزنا صادقا، حين وجدوه قد فارقهم، واعتزموا أن يحرصوا على ذكرى أكرم الأولياء وأبر السادات، حتى لقد قال خادم وهو يشهد الفراغ من جولهم، ويرى الدار العامرة خلاء: "لإنزال طي صدورنا وحول قلوبنا، نرتدي ثياب الخدمة التي كان تيمون يكسونا بها ويجملنا، حتى ليلوح على وجوهنا، أننا لا نزال زملاء في عملنا، نخدم سواسية في أحزاننا".

وقبل أن يصرفهم فلافيوس الوكيل من خدمة مولاه قسم بينهم الفضلة الباقية من ماله! وخلا هو إلى نفسه يفكر فيما حل بسيده، فصح منه العزم على الخروج للبحث عنه، لأنه لا يستطيع احتمال تصوره وحيداً

شريداً بلا طعام ولا مأوى، ولكنه قضى فترة من الوقت يبحث عنه فلا يجده، إذ كان مولاه قد خرج ولم ينبئ أحداً بوجهته.

ولكن تيمون كان قد وجد في الغابة القصية عن أثينا كهفا يأوى إليه وطعاما قليلا مما يتيسر في الغاب يتبلغ به.

وفي ذات يوم، بينما كان يضرب بفأسه الأرض محتفرا يلتمس جذوراً. إذ اصطدم الفأس بشيء براق صلب فنظر فرآه ذهبا، أي والله ذهبا وفراً كثيراً. أو كومة من ذهب نضار لعله لبخيل جمعه ثم جاء فدفنه في ذلك الموضع.

ولكن مشهد هذا الكنز العظيم لم يبعث في نفسه فرحا، بل بالعكس عاد يذكره بكل ما غرس المال في نفوس البشر من جشع وما أقام بينهم من نزاع وصراع.. وما ركب في طباعهم من دناءة ولؤم.. فقال لنفسه لخير أن يبقيه حيث وجده، لا تقع منه، من أن يخرجه من مرقده فيغري الناس بالشر ويدفعهم إلى الإثم.

ولكن ما لبثت أن دارت في خاطره فكرة أخرى، وهي أن يخرج هذا الذهب من مخبئه ليحدث الأذى بين الناس! ومن ثم ترك بعضه ظاهراً للعيان.

وفيما كان منشغلا على هذه الصورة باستخراج بعض ذلك الكنز الدفين. إذ طرقت سمعه من بعيد أصوات موسيقى عسكرية ومواقع أقدام جنود في أثناء السير. وما لبثت شر ذمة من الجند أن اقتربت منه وعلى

رأسها قائد يدعى "السبيادس" كان تيمون يعرفه حق المعرفة في أيام أثينا الخاليات.

وكان السبيادس هذا قد قاد فيما مضى جحافل أثينا فزحف على أعدائها ولكن مجلس الأعيان فيها قابل إحسانه بسوء.. وعامله بكفران لفضله وجحود: فانقلب على قومه.. ووجد على وطنه. وجاء الآن يزحف على أثينا. ولكن كان يعوزه المال ليدفع منه أجر جنوده.

فلم يتردد تيمون في إعطائه بعض الذهب الذي اكتشفه منذ لحظة، لأنه لم يكن يتمنى من شيء أكثر من أن يجلب هذا المال الويل والثبور، والدمار والخراب، على أهل أثينا، فقيرهم والغني ورجالهم والنساء، وشبابهم والشيب سواء.

ولما سأله السبيادس هل من شيء يريد منه قضاءه لقاء هذا المال الذي خباه به، قال إنه لا يريد إلا السوء والشر للناس جميعا.وأخذ السبيادس المال وانصرف.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى شاعت الأقاويل عن مقر تيمون والموضع الذي أوى إليه فكان أول من جاءه بعد السبيادس الفيلسوف الساخر "أبيمانتاس" وقد ساقه الفضول إليه ليرى هل يعيش تيمون المعيشة التي يعيشها هو ويحياها إذ اعتاد أبيمانتاس أن يعتقد في الناس السوء ويتحدث به عنهم؛ ولكن ينتفع بما في الإمكان أن ينتفع به منهم، بعكس تيمون، فلم يكن، مع اعتقادي السيئ، يريد الاختلاط بهم أو يطيق العيش فيهم.

فحاول أبيمانتاس إقناع تيمون بترك هذا البلاء الذي فرضه على نفسه واستغلال الأشرار والأوغاد لخيره وفائدته! فإن ذلك هو ما ينبغي أن يقابل به أولئك الذين استغلوه من قبل لمنافعهم ومآربهم ولكن تيمون أبى في سخرية أن يخضع لأحد ما أو تكون له بالذين كرههم وسئمهم أية صلة فعده أبيمانتاس مجنونا بإيثاره هذه العزلة المضنية والوحدة الأليمة، وعده تيمون نذلا بالتجائه إلى الذين يزدريهم، والتماس حاجته عند الذين يحتقرهم.

ثم طرده من حضرته.

وجاء من بعده بعض اللصوص لافتقاد الذهب فأدهشهم تيمون بأن حملهم إياه وطلب إليهم أن يفعلوا به ما استطاعوا من أذى وشر وسوء.

وجاء بعد ذلك فلافيوس، فإن حبه لمولاه وإخلاصه ساقاه إلى البحث عنه والتقدم إليه ليعيش معه بمثابة خادمه، فلما رأى مولاه وكان عهده به الرافل في المطارف، المفعم النفس حياة ومرحاً، عارياً مهموماً، زري الهيئة، لم يتمالك دموعه.

ولكن تيمون لم يشأ معرفته، ثم أبى كذلك أن يعتقد صدق بثه عن حزنه وتفانيه، إلا أن فلافيوس أكد له أنه لا يبغي منه شيئاً غير أن يبقى معه ويخدمه ويلازمه. وكان منطقه من الجد، ومحبته من الوضوح، بحيث لم يسع تيمون أخيراً إلا الإقرار بأنه قد وجد واحداً في الدنيا كلها أمينا. ولكنه وقد نفى من قلبه كل أثر للحب لبني جنسه، فلن يتقبل عطفاً ولا شفقة من وكيله وإنما راح يعرض عليه ذهبا ليثري ويغني إذا شاء.

ولما وجد فلافيوس أن رجاءه الأخير بقوله: "ناشدتك يا مولاي إلا ما تركتني أمكث معك، وأرفه عنك" لم يؤثر في نفس سيده، انصرف المسكين حزيناً مغموما.

غير أنه بعد أيام عاد مصطحباً رجلين من كبار شيوخ أثينا وأعيانها، لم يقدما عن فضول يحدوهما إلى رؤية تيمون ومشاهدة حاله، ولا عن رغبة في مد يد المعونة إليه، بل بالعكس، لكي يطلبا إليه المعونة لأثينا في محنتها والخطب الذي ألم بها، فقد كان السبيادس يومئذ قد أصبح بجيشه على أبوابها وأمسى يهددها بالنار والسيف ليدمرنها تدميراً، ولم يكن في المدينة من قائد عظيم يستطيع الوقوف في وجهه، أو يقوى على مقاومته، وقد تذكر أعيانها في هذه الطوارئ كيف قاد تيمون من سنين عدة الجيوش وغلب الأعداء، فجاء هذان إليه اليوم يسألانه النجدة! وسوف تغذق عليه ألقاب الشرف وأكداس المال، ويعطي السلطان المطلق إذا هو قبل تولي القيادة.

إن الذين عاملوا تيمون بالأمس في ساعة عوزه، وأيام محنته وإملاقه بجحود سافل، وكنود حقير، ها هم أولاء اليوم في شدتهم وبلواهم يرجون معونته.

ولكن تيمون أغلظ لهما في الجواب ووجه إليهما رداً مراً خالياً من كل عاطفة قائلا إنه لن يحرك أنملة واحدة للدفاع عنهم وإنه: "إذا قتل السبيادس قومي، فأبلغوه عن تيمون أن تيمون لا يبالي!".

واسترسل يقول: "وإذا أراد أحد من أهل أثينا وبنيها أن يتخلص من

آلامه، وينجو من متاعبه فليأت إلى هنا قبل أن يدرك الفأس شجرتي هذه وليشنق نفسه في جذعها".. وانثنى يشير بأصبعه إلى شجرة قائمة عن كثب كان معتزماً من قبل أن يحطمها ليتخذ منها وقودا!.

فذهب الشيخان من حيث أتيا..

وكذلك تركت المدينة تحت رحمة السبيادس، ولكنه مع ذلك لم يدعها للسلب والنهب ولم يتركها للذبح والقتل وسفك الدماء وإنما استمع إلى نداء شيوخها، واستجاب لدعاء أعيانها، ووعد أن لا ينال بالعقاب إلا المسيئين والذين تثبت عليهم معصية القوانين..

واتفق قبل ذلك بيوم أو بعض يوم أن مر أحد جنود السبيادس غير بعيد من كهف تيمون من الغابات حذاء شاطئ البحر فوجد قبراً قائماً على ربوة تشارفه وشهد عليه كلاماً منقوشا ولما لم يتمكن من قراءته راح ينسخ واحتمسه كلما يخانل الصورة المنسوخة إلى قائده، فأدرك السبيادس من قراءتها أن القبر قبر تيمون، إذ يقول النقش القائم عليه: "هنا أرقد أنا تيمون، الذي كان يمقت الأحياء جميعا.." وقد شفع تيمون هذا باللعنة على الناس أجمعين..

وما يدريك لعل تيمون لو أن رأيه في الناس في أيام نعماه كان أقل حسناً مما رأيت، فأحبهم أكثر مما أحب، لراح رأيه فيهم أقل سوءاً مما شهدت، حين خانوا عهده، وغدروا به، ولكرههم أقل مما كره .

مأساة كور يوليناس

لم تكن أرض روما في السنين الخالية غير جزء صغير من إيطاليا. وكان يتولى حكمها في الغالب مجلس الأعيان "السناتو" وهو مجلس مؤلف من كبار القضاة والأشراف.

غير أن جمهور الشعب أخذ رويداً يطالب بأن يكون له صوت أو نصيب في حكم البلاد! وراح شيئا فشيئاً يظفر بما طلب. وعلى الأيام تعين موظفون مخصصون يسمون "التريبيون" أي "المأمورين" أو "المراقبين" للاشتراك في رعاية مصلحة الشعب وحمايته من ظلم العلية وجور الخاصة.

وحدث عقب تعيين هؤلاء المراقبين، أن قامت مجاعة أو قحط شديد، فجعل الفقراء وجموع الساغبين والمتضورين من الجوع يلومون الأغنياء على حبس ما في المخازن عنهم من الحبوب والغلال، وراحوا يصبون جام غضبهم خاصة على محارب مشهور يدعي كاياس ماركياس. كان قد أكسب روما عدة انتصارات، ولكنه كان مكروها لمجاهرته باحتقار الشعب والازدراء به.

فتجمهر في الشوارع فريق من المواطنين كانوا أشد أفراد الشعب تمردا، وأنزعهم إلى الفتنة، وراحوا يهتفون بموت كاياس ماركياس وهموا بأن يتجهوا بمظاهرتهم العدائية نحو داره لولا أن تقدم إليه أحد أشياخهم وكبير

من أعيانهم، يدعى (منينياس اجريبا) فحاول بالحسنى صرفهم عن وجهتهم وتهدئة ثائرتهم.

وكان هذا الشيخ صديقا لكاياس، كما كان معروفا بحبه للشعب ومحبوبا من الجميع، فرضي المتجمهرون، والمشاغبون الاستماع إلى كلماته، واستعدوا للإصغاء إلى خطابه.

وذهب أجريبا يقول لهم أن هذا القحط لم يكن من فعل البشر ولا الذنب فيه لمجلس الأعيان إذ هو في الواقع شديد الرغبة في توخي الصالح العام.

وانشأ يقص عليهم قصة تبين كيف أن كلا من مجلس الأعيان وأفراد الشعب ضروري للآخر، ولا قيام لأحدهما دون صاحبه.

قال:

– يحكى أن سائر أعضاء الجسم تمردت يوماً على البطن فادعت أنه لا يؤدي عملا، بل لا يشتغل، وكل همه أن يحفظ الطعام الذي يأتي إليه فلا يشترك مع الجوارح الأخرى في عمل الجسم وجهده بل يتركها تتولى الأمر بنفسها وتعمل بذاتها.

فكان جواب البطن على احتجاجاتها وشكاواها أن قالت: لست أنكر، أنني أتلقى الطعام ولكني لست أحفظه لنفسي وإنما أرسله عن طريق الدم ليغذي سائر أعضاء البدن ويبقى على حياتها وهكذا من عملي يحيا الجسم كله ويصح، وكل ما احتجزه هو فضلات الطعام التي لا غناء فيها للبدن عامة.

وأردف مانينياس قائلا لأولئك المواطنين أن تمردهم على الذين يكفلون لهم حاجياتهم أشبه بتمرد مختلف أجزاء الجسم على البطن فإن الدولة كالجسم يختل نظامها، ويفسد أمرها، إذا نزع أفراد من بنيها إلى التمرد والعصيان.

وكان حجة منينياس الهادئة اللطيفة المدخل على النفوس يحتمل أن تهدئ من ثائرة الشعب، ولو لم يظهر في تلك اللحظة كاياس ماركياس نفسه فيعمد إلى شتم الساخطين الغاضبين ومناداتهم "بالكلاب"، والأشقياء وغيرهما من مرذول الصفات، وإلى الإنحاء باللائمة عليهم ووصفهم بالتقلب الميل مع الهوى، وأنهم لا يعول عليهم، ولا يوثق بهم، ولا يركن إليهم.

ولما سمع من منينياس أنهم يطالبون بإعطائهم غلالا بالأسعار التي يرتضونها. نهرهم وعنفهم على دعواهم الجريئة وجهلهم وراح يهددهم بسيفه ثم طردهم من حضرته، فقد كان ينظر إلى الشعب نظرته إلى رعاع خطرين يجب قمعهم بلا رحمة ولا هوادة وتحدث إلى منينياس عن شكه في الجدوى من تعيين "المراقبين" واحتمال ما ينجم عنه من متاعب وقلاقل وفتن.

وفي ذلك الوقت كانت المجاعة والتطاحن الحزبي في روما قد شجعا بعض خصومها ومنافسيها القدماء، ونعني بهم جيرانها "الغولش" على إعداد غارة عليها وكان كاياس ماركياس. من قبل قد تلاقى وزعيمهم تولاس أوفيدياس فهزمه في المعركة، كان يعرفه جندياً شجاعاً بارعا في أساليب القتال.

فتولى كاياس ماركياس. بناء على قرار مجلس الأعيان إمرة الجيش بإشراف القنصلين -أي المستشارين- اللذين كان معهوداً إليهما بقيادته إلى الحرب، وكان المراقبان أو المشرفان اللذان حضرا المناقشات في مجلس الأعيان قد وجدا على كاياس ماركياس لخشونته وطيشه في حق الشعب وقحته وجرأته وعجب الشعب من رجل متكبر محرر مثله يعارض بأن يكون مرؤوساً للقنصلين وحسبوا ذلك خدعة ومكراً وجعلوا يقولون فيما بينهم إذا انتصرت روما أدعى الفضل لنفسه وإن هي انهزمت نسب اللائمة إلى هذين القائدين.

وسمع زعماء الفولش من الجواسيس بنبأ استعدادات الرومان للحرب فقرروا أن يتوجه أوفيدياس من كوربولي عاصمة بلادهم بجيشه لملاقاة الرومان تاركا من ورائه جماعة صغيرة للدفاع عن المدينة.

ولما خرج الجنود الرومان من روما خلفوا وراءهم النساء من أزواج وأمهات وأخوات ينتظرن بقلق ولهفة نتيجة القتال. ومآل المعركة وكانت زوج كاياس قد امتلأ فؤادها رعبا وقلقا ولكن أمه "فولامنيا" مثل كثيرات من نساء روما في السنين الخاليات كانت أحفل بالشرف منها بالسلامة والأمان من الموت وعدت إظهار زوجته للخوف ضعفاً وخوراً.

وفيما كانتا تتحادثان إذ أقبل صديق بأنباء تفيد بأن كاياس ماركياس قد راح يقدم المعونة والمدد للغارة على كربولي وأن الجيش الروماني الرئيسي يحاول الاشتباك مع العدو في الميدان.

وكانت هذه الأنباء صحيحة فقد بدأ كاياس وجنوده بالزحف على

المدينة ولكنه أخفق وفشل وارتد مهزوما مدحوراً إلى خنادقه غير أنه عاد في غضب فاستجمع جنوده وجعل يندد بهم ويعيرهم ويدعوهم الجبناء الرعاديد حتى استطاع بهم رد الفولش وإرجاعهم القهقرى إلى المدينة وعدا هو وراءهم بنفسه مطارداً ولكنه ترك بلا مدد فتكاثر الفولش عليه متألبين وأكرهوه على الخروج من أبواب المدينة مثخناً بالجراح.

غير أن إقدامه وشجاعته وجرأته ما لبثت أن شجعت أتباعه وألهمتهم البأس والاستبسال فكروا على العدو ودخلوا المدينة كرة أخرى وعلى الأيام استولوا عليها.

فأقام كاياس فريقاً من جنوده على المدينة ليكفلوا بقاءها في قبضتهم وبادر هو بتعبئة رجاله، على الرغم من جروحه، لإمداد الجيش الرئيسي وكان هذا مشتبكا مع العدو في معركة على مسيرة ميل أو نحوه وكان العدو قد حمل عليه وشدد الوطأة فوصل ماركاس في الوقت المناسب وزحف بقوة على الجناح الذي يقوده أوفيدياس فتحول بذلك سير القتال إلى صف الرومان ودارت الدائرة على أعدائهم، وبرز ماركاس لأوفيدياس وتلاقيا وجها لوجه ولكن أنصار الأخير أنقذوه من قرنه، ونجوه من مجالده وأحرز الرومان في النهاية نصراً كاملا، ومنح القائد الروماني لكاياس لقب "كوريوليناس" اعترافا بفضله على حسن بلائه في القتال والاستيلاء على مدينة "كوريولي".

ورد الرومان في شروط الصلح المدينة إلى الفولش. ولكن أوفيدياس بعد تكرار الهزائم التي أصابته من منافسه في الميدان اعتزم أن يجعل الغلبة

له على كاياس، أو كوريولينياس، كما سندعوه بعد الآن.

فإذا لم تتيسر الغلبة له بالوسائل النزيهة. فليلجأ إذن إلى الوسائل المعيبة. ولبث يترقب السوانح، وينتظر الظروف، وسنعلم اللحظة كيف نجح في النهاية.

ولما وصلت أخبار كوريولينياس وعظائم فعاله والمجد المعلى الذي أحرزه إلى أسماع "ممثلي" الشعب في روما –التريبيون– لم يكن ابتهاجهم بانتصار روما ليعدل مبلغ استيائهم من نجاح كوريولينياس وقد ظهر شعورهم على حقيقته في حديث دار بينهم وبين الشيخ الطيب الكريم منينياس فقد أبدوا له مخاوفهم من أن المجد الجديد الذي أحرزه كوريولينياس سوف يطغيه على الشعب أكثر من قبل ويرده أعنف كبرياء وأشد صلفاً. فوبخهم منيناس على صغار نفوسهم وخلائهم من الوطنية.

ولما شاهدوا كوريولينياس قد عاد عودة الظافر المنتصر ورأوا أصحابه يقبلون عليه ممطريه سيلا من التهنئات لم يجسروا على إظهار كراهيتهم له. وإعلان بغضائهم، ولكنهم فيما بينهم كانوا يخشون من أن يقلد كوريولينياس أسمى منصب في الدولة فيعمل بسلطانه على تحيف سلطانهم والتقليل من نفوذهم ولكن لعلهم كانوا يعللون النفوس بأن صلفه وغطرسته واختياله على الناس سوف يهدم ما بنى وتنقلب عليه أسوأ منقلب فائتمروا بينهم على إثارة غضبه وتهييج حفيظته ليزدري الشعب علانية فتثور الغوغاء عليه.

واجتمع مجلس الأعيان عقب ذلك بقليل لإجراء الانتخاب السنوي للقناصل. وكانت مدة قيام القنصل بعمله في روما سنة واحدة. فاقترح أحد القناصل الذين انتهت مدتهم. وهو القائد كومينياس أن يخلفه كوريوليناس على مكانه وجعل يعدد للمجلس أعمال الشجاعة والإقدام التي أتاها كوريوليناس وقيادته الملهمة وإباءه الإثراء من أسلاب النصر وغنائمه فوافق مجلس الأعيان في حماسة على انتخابه قنصلا.

وكان قد بقي لإتمام انتخابه باحتفال تقضى به المراسيم إذ جرت العادة في روما بأن يتقدم القنصل الجديد إلى الشعب في الساحة العامة – السوق– فيلقى على الشعب خطابا يؤيد به استحقاقه لتقلد أسمى المناصب في الدولة ويطلب إلى الشعب ثقته وتأييده.

ولكن كوريوليناس أراء إلغاء هذا الاحتفال قائلا أنه لم يكن بالخطيب المناسب. والمتحدث المحبوب من الشعب، وحين سلم على كره منه بمواجهة الشعب وتوكيد استحقاقه لمنصب القنصلية ووقف في الملأ خطيباً، انثنى يسخر من سائليه. ولم يحاول التلطف في الجواب لمستفسريه. ومع ذلك لم يتردد الشعب في المناداة به قنصلا واعتمد التريبيون حينئذ قرارهم ولكنهم فيما بعد حين سمعوا مواطنا بعد آخر يشكون من ازدراء كوريوليناس وسخريته غيروا رأيهم وراحوا يقولون للناس: "لقد علمتم ما بكوريوليناس أبدا من كره لكم واحتقار لشأنكم، أما وقد أصبح اليوم قنصلا. فإنه غداً أقدر على إيذائكم، وسوف يسلبكم جميع حرياتكم، غير أنه لم يفت الوقت بعد لكي تستردوا تأييدكم وتسحبوا اقتراحكم لمصلحته

فقولوا إذا شئتم أنكم نزولا على رأينا نحن ممثليكم قد أعطيتم أصواتكم في تأييد انتخابه وأن اللائمة في تصويتكم هذا لمصلحته علينا نحن وليست اللائمة فيه عليكم.

* * *

وما زال "التريبيون" بالشعب يحرضونه على هذا النحو ومثله ويحرشونه بكوريولاناس ويدفعونه إلى تغيير قرارهم بشأن انتخابه حتى تأثر الشعب وانصاع لهم. بينما ذهبوا هم يحاولون اتقاء اللائمة على تحوله وتقلبه.

وكان كوريولاناس يومئذ عقب قبوله القنصلية قد انثنى يضطلع بواجبات منصبه الجديد.

وما لبثت الأنباء أن جاءت تفيد بأن الفولش الذين لم يمض على هزيمتهم غير قليل يتأهبون لشن الغارة على الرومان من جديد.

فلم يكن ثم شك في أن كوريولاناس وقد أصبح قنصلا هو أنسب قائد لملاقاة الغاراة الجديدة.

ولكن بينما كان يعد تصميماته ويرسم خططه. ويستشير الأعيان الآخرين في مجلس مداولته. إذ فاجأهم التريبيون بنبأ سحب الشعب أصواته ومعارضتهم في انتخابه. فلم ير كوريوس في هذا التحول الفجائي غير برهان آخر على حماقة العامة وفساد رأيهم. ولم يحاول إخفاء احتقاره لهم ولممثليهم فأجابه هؤلاء مذكرين إياه بسابق زراياته للشعب وأهاناته

وماضي استخفافه بمعايشهم في أيام القحط ومصالحهم..

وحاول منينياس عبثاً أن يحسم النزاع ويهدئ من ثائرة المتنازعين. فقد تملكت الفريقين في تلك الساعة سورة الغضب. واحتدم الخلاف. حتى لقد التفت أحد ممثلي الشعب إلى كوريوليناس فقال له في غضب:

"إنك لتتكلم عن الشعب كأنما أنت رب قدير تملك العقاب وفي يدك القصاص لا كبشر مثلهم في العجز سواء".

وأردف قائلاً أنه سيبلغ الشعب عبارات الإهانة والاحتقار التي تفوه بها في حقهم.

غير كوريوليناس لم يكن ليرى في السلطات الجديدة التي أعطيت إلى الشعب غير الخطر على الدولة.وكان الرأي عنده أنه يتحتم على مجلس الأعيان أن يسحب تلك السلطات وإلا عرض مصير الدولة للخراب بترك مقاليد الأمور لجهالة الشعب وحماقته.

واستفحل الأمر بانفجار غضبه وشدة اعتراضه على الحقوق التي اكتسبها الشعب من عهد قريب إذ بادر "التريبيون" إلى اتهامه بالخيانة وإلى المطالبة بالقبض حالا عليه. ولم يجد نفعا كل ما فعله منينياس والعقلاء من الشيوخ والحكماء من الأعيان في سبيل تهدئة العاصفة وذهب مساعيهم أدراج الرياح.

وأحاط جمع من الغوغاء وهم غضاب بكوريوليناس، بناء على دعوة من التريبيون وطلبهم، بينما راح هؤلاء يطالبون بموته.ولكن أنصاره

وأصحابه بادروا إلى نجدته وصرفوا الغوغاء عنه.

وعليه ما زال منيناس بكوريولينياس حتى أقنعه بالعودة إلى بيته. بينما انثنى هو يحاول تسكين ثائرة الشعب.

ولما كان بطبيعته محباً للسلام لم يستطع أن يدرك سر غضب كوريولينياس ودوافع حنقه وهياج نفسه، فجعل يخاطب الغوغاء الغضاب مهدئا ثائرتهم بالرفق واللين في الخطاب مذكرا إياهم أن كوريولينياس على الرغم من أغلاطه قد استحق تقدير الوطن، واستأهل الإحسان من بلاده. فإذا أبى التريبيون إلا اتخاذ الإجراءات ضده، فليترفقوا وليستأنوا، وليأخذوا بالعدل والإحسان ولا يتهوروا ويتعجلوا.

وقال لهم أن السبيل القويم، الطريقة الحكيمة، هي استدعاء كوريولينياس وإمهاله حتى يجيب على التهم الموجهة إليه ومراضاتهم ومصالحتهم فوافق التريبيون والشعب على الأخذ بهذه النصيحة.

ودهش كوريولينياس حين وصل إلى بيته أن وجد أمه "فولامنيا" تستنكر تصرفه وتستهجن سلوكه وعندها أنه قد أظهر شعوره الحقيقي للشعب قبل الحين المناسب وكان أولى به أن يتريث حتى يتوطد مركزه، ويستقر سلطانه ويتعزز نفوذه.

وكان كوريولينياس يحترم أمه احتراما شديداً، فقد كانت مثله، أرستقراطية متشددة في أعماق قلبها، تحتقر الشعب، وتزدري الجماهير. ولما رأى أنها هي أيضا قد خطأته ونسبت اللوم إليه، بدأ يستمع لنصيحتها.

وجاء على أثره منينياس من مجلس الأعيان في جمع من الأصدقاء فألحوا هم أيضا في مسالمة الشعب ومحاسنة الكافة لينقذ روما من الفتنة وأخطارها والثورة ونتائجها. وإنهم لكذلك إذ قدم، كومينياس، بنبأ تجمهر وصخب انتشرا في المدينة.

وكان لابد من البدار إلى عمل ما لعلاج الموقف فما زالت فولا مينيا ومتينياس بكوريوليناس حتى وافق مكرها وضد طباعه، على التقدم إلى الشعب ومحاولة ترضيتهم واكتساب مودتهم، حتى وإن اضطره ذلك إلى تمليقهم وملاطفتهم.

ولكن تبين من سير الحوادث أن تحوله من المخاشنة إلى المحاسنة جاء بعد فوات الأوان، إذ كان التريبيون الحسدة له الواجدون عليه قد انهمكوا في تحريض الشعب عليه وتأجيج نار البغضاء له، وأشاروا عليهم باتهام كوريوليناس بالعمل على إقامة حكم الطغيان، فإذا استطاع تبرئة نفسه من هذه التهمة فليتهموه بالحقد على الشعب وكراهيته، وإن هو خرج من هذه أيضا بريئا فليتهموه بأنه لم يقسم الأسلاب والغنائم التي اجتمعت من الغلبة على الفولش، ولم يكتفوا بتلقين الشعب هذه التهم لتوجيهها إليه بل أجمعوا أمرهم على التحرش بكوريوليناس وإثارة خاطره بالكلام والألسنة الحداد، حتى لا يتمالك نفسه ويغلظ للشعب في الجواب.

وكذلك عندما تقدم كوريوليناس في رفقة منينياس أمام الشعب وأنشأ يتحدث إليهم في رفق كما وعد، وجد الأمر شاقا عليه فحاول منيناس كدأبه استمالة الشعب بتذكيرهم بحسن بلائه في الحرب راجيا إليهم أن

يصفحوا عن خشونة مسلكه ويتغاضوا عن جفوته، فذلك شأن الجندي وبعض طبيعته.

غير أن أحد الممثلين للشعب -التريبيون- أراد أن يحول دون الوئام، ويمنع استتباب السلم، تقدم إلى الشعب وابتدر كوريوليناس باتهامه بخيانة الشعب والغدر به.

فكان له ما أراد، إذ لم تن هذه التهمة أن أوجعت كوريوليناس ولذعته وبدلا من أن يرد عليها برفق وهدوء، راح ينكرها بقوة وينفيها عن نفسه بشدة وعنف، وانفجر غضبه فحمل على الرجل الذي اتهمه بها حملة شعواء.

فما كان من هذا "النائب" إلا أن أصدر باسم الشعب الحكم على كوريوليناس بالنفي مدى الحياة "المؤبد" وما أن سمع الغوغاء ذلك حتى تصايحوا في حماسة بالغة معلنين موافقتهم هاتفين بحياة ممثليهم مصفقين لهم مهللين.

وكان قانون البلاد يقضي على كوريوليناس طبقا لهذا القرار بالرحيل إلى المنفى.

وعجب التريبيون وتولتهم الدهشة بلا شك حين رأوا كوريوليناس قد تقبل هذا القرار لأن احترامه للقانون على هذه الصورة كان مشرفا له، على الرغم من إغلاطه وذنوبه، ولعله ارتضى ذلك لعلمه بأن شعب روما لن يلبث أن يستشعر الأسف على تعجله في قراره.

وودع كوريوليناس أهله وصحبه وداعا جافيا ولكن أليماً وأبى على أحد أن يرافقه إلى منفاه. وخرج من المدينة وحيداً فريداً.

والآن قد تخلص التريبيون من عدوهم وعاد السلام يخيم على المدينة حتى حين، وبدا في أول الأمر أن الحال قد هدأت والأمور تجرى في أعنتها وتفاخر التريبيون بفوزهم على عدوهم وعدوا ذلك من محامدهم.

غير أن انتصارهم لم يطل عليه الأمد، إذ حين علم الفولش بنبأ الاضطرابات التي جرت في روما ونفى كوريويناس أعدى أعدائهم. وألد خصومهم. بل الخصم الذي يرهبون جانبه. تشجعوا وسارعوا إلى التأهب لشن الغارة على روما، وأدهى من ذلك أن كويورليناس راح من شدة موجدته على بني قومه لجحودهم ونكران حقيقته لهم. وعوارفه فيهم. يقصد "أفتينا" إحدى مدائن الفولش وقد انتوى أن يعرض على أوفيدياس قائدهم معونته على بلاده.

وكان أوفيدياس مقيما مأدبة دعا إليها النواب والأشراف من قومه، حين دخل كوريوليناس مدينة أثينا متنكراً في زي سائل يتكفف الناس، وجاء إلى قصر أوفيدياس، فظنه الخدم معترا هائما على وجهه فأبوا أول الأمر أن يأذنوا له بالدخول ولكنه شق طريقه حتى مثل بين يدي أوفيدياس، فاغتبط هذا طبعا بما كان من دورة الحوادث، وتحول الظروف.

ورحب بكوريوليناس من قلبه وتولته الحماسة فعرض عليه قيادة نصف جيشه والإشراف على المعركة القادمة.

وسمع التريبيون في روما بالنبأ فلم يصدقوه بادئ الأمر وصبوا جام غضبهم على الرسول المسكين الذي جاء بالخبر الأليم.

ولكن رسلا آخرين قد أتوا فأكدوه، فلم يتوان منينياس وكومينياس في تذكير النواب المروعين مما سمعوا بأن تلك هي النتائج الوخيمة التي أدى إليها نفى كوريولييناس من البلاد فخسرت روما بذلك شجاعته وبراعته وربحهما العدو وأضحت روما تحت رحمتهم..فندم أهل روما عندئذ على ما فعلوا ندامة مرة وانعقد مجلس الأعيان يسبب هذه الطوارئ وقرر السعي في إقناع كوريولييناس بالرجوع إلى وطنه ولم يتردد الشعب لحظة في إلغاء قراره القاضي بنفيه. بل لقد كان ذلك القرار قد ذهب من خاطرهم شيئاً فشيئا.

وكان كومينياس قد شخص فعلا إلى كوريولييناس واجتهد في استمالته إلى الرجوع ولكن كوريولييناس أصم أذنيه عن سماع حججه ومبرراته.ولم يشأ التريبيون من الحياء أن يذهبوا إليه فيسألوه رجوعا وكانت تصرفاتهم المتعجلة ومسلكهم البعيد من الحكمة هي التي أدت إلى نفيه.

فقرر مجلس الأعيان القيام بمسعى آخر. وانثنوا إلى الشيخ الطيب الكريم منينياس يرجون إليه الذهاب بنفسه ومناشدة كوريولييناس المآب إلى روما.

ولما قدم منينياس على كوريولييناس، وجده مع أوفيدياس، فأنشأ يتوسل إليه، والدمع في عينيه أن يعفو ويصفح عن بني قومه الصفح الجميل، ولكن كوريولييناس لم يحفل بتوسلاته، ولم يعبأ بتضرعاته بل قطع عليه القول ورده من حيث أتى.

وكان المحاولة الأخيرة، والملتجأ الباقي، خروج أمه وزوجته وولده الصغير إليه. فلما رآهم شق عليه فعلا أن يقسوا حيالهم ويحيل قلبه من جديد صلباً إزاءهم، وخشي أن يختلي بهم عند لقائه لهم لئلا يستسلم لهم ويذعن. فعمدت أمه فولامنيا إلى التأثير فيه من ناحية إحساسه كجندي بقيمة الشرف، مهيبة به: أفتحسب مما يجمل يشرف الرجل السامي النفس أن يظل يذكر الأغلاط ولا ينسى الآثام ولا يغفر الذنوب.؟!

وأنشأت تحذره وتنبهه إلى أنه إذا أصر على جفوته، وأبى إلا البقاء على عداوته. فسوف تلعنه الأجيال الخالفة، وتنقم عليه الذراري القادمة، لأنه بسبب ظلم وقع عليه، وذنب ارتكب في حقه، أنتقم من وطنه، وثأر لنفسه من بلاده.

وأنه إذا أبى العودة فليحاول على الأقل أن يبذل كل ما في وسعه للتوفيق بين وطنه وبين أعدائه السابقين والتمكين للصلح بينهما للسلام. فلم يقو كوريوليناس على مقاومة هذه التوسلات التي اشتركت فيها أمه وزوجه وولده فأنشأ يقول:

"لك الله يا أم... فلقد كسبت لروما اليوم نصراً عزيزاً، وفوزاً مبيناً".

ولكنه تذكر فجأة حليفه الجديد أوفيدياس، وكان واقفاً عن كثب منه، فأدرك أنه إذا هو أذعن لرجاء أمه. فقد تخلى عن حليفه، وعادى أصدقاءه الجدد، فاستدار إليه قائلا:

– أوفيدياس! لئن كنت عن الحروب حقيقة عاجزا، فما أنا عن تنظيم

السلم الصالح بعاجز.. ألا خبرني يا أوفيدياس الكريم لو قد كنت في مكاني، أفتحسبك مستمعاً لأمك يا أوفيلدياس أقل مما سمعت أو مستجيباً لمطلبها أقل مما استجبت؟!

وحين هم كوريولينياس باللحاق بزعماء الفولش وقوادهم معتزما الاتفاق معهم على الصلح من جديد، أنثنى إلى أهله يخاطبهم في وقفته للوداع قائلا:

– أيتها السيدتان، إنكما لمعبد يشاد لكما تستحقان. بالتكريم جديرتان. وأن جميع أسياف إيطاليا وأسلحتها متحدة مجتمعة، ما كانت لتقيم هذا الصلح، ولا كان في مقدورها إحداث هذا السلام.

ولكن أوفيدياس كان يعلم أن الصلح لم يقم بعد وأدرك أن فرار كوريولنياس قد وضع أخيراً عدوه القديم في قبضة يده وملكه من خصمه فاعتزم أن يأخذ منه ثأره كاملا غير منقوص.

وبينما كانت هذه الحوادث تجرى في مسكر الفولش كان القلق سائداً روما والخوف مستولياً على شعورها.

فقد انقلب فرح التريبيون بنفي كوريولينياس ترحا واستحال تهللهم له قلقاً وحزناً، وأرتد فخرهم به خيفة في قلوبهم على حياتهم. إذ كان الشعب الروماني قد أدرك أنهم أصل البلاء وسبب النكبة فانقلب عليهم. وراح ينادي بموتهم.

غير أن الحظ تغير فجأة فعاد في صفهم.. فقد جاءت الأنباء بأن

كوريولينياس، أذعانا لرجاء أمه، اعتزم أن يرد الجيش المغير عن روما ويصلح بين الجمعين. فكانت مفاجأة للرومان: وذهب عن أهلها الروع. وهدأ البال، وخرج الأعيان في جموع زاخرة، لاستقبال السيدتين عند عودتهما والاحتفال بقدومهما ومرافقتهما إلى بيتهما وسط هتافات بالغة وترحيب كريم.

ولبثت والدة كوريولينياس وزوجه يرتقبان في جذل مآبه بسلام محمود وصلح يحقن الدماء.. ولكن أوفيدياس كان قد دبر تدبيرا آخر فإن رغبته في الثأر من منافسه القديم الذي طالما دحره في الحرب وكسره، قد أمكن الآن أن تتحقق. وشهوته إلى الانتقام قد حان إشباعها، فضلا عن أنه كان ينفس عليه الشهرة التي اكتسبها بصفته قائدا لجيش الفولش، ولذلك دعا سراً إليه بعض أتباعه والمتشيعين له وقص عليهم كيف قرر كوربولينياس الصلح على غير انتظار ودون استشارة أحد الزعماء فحرم بذلك الفولش من فرصة أتيحت لهم للظفر بنصر باهر. بل أنه بذلك خان عهد حلفائه المحدثين.

ولذلك حين جاء كوربولينياس إلى النبلاء وهم مجتمعون ليبلغهم نبأ النهاية السعيدة لنزاعهم مع روما وجد وجوههم عابسة وصفحات معارفهم متجهمة له، وما كاد أوفيدياس يلمح لهم تلميحاً، حتى رفضوا وأبوا حتى قراءة شروط الصلح المقترح واتهموا كوريولينياس جهرة بالخيانة.

وإزاء هذا الاتهام لم يأخذ كوريولينياس بالحكمة والحزم والسكون في الجواب عليه، ولكنه غضب أشد الغضب، وتملكه الحنق، وأغلظ لهم في الخطاب...

فهاج القوم وماجوا وانتهز المتآمرون هذه الفرصة التي كانوا يترقبون سنوحها وطلبوا إلى الشعب القضاء على هذا الخائن، واشترك العامة في هذا الضجيج الصاخب، ولم يشذ من النبلاء والأشراف إلا واحد منهم اجترأ على مخالفة الإجماع مطالبا بمحاكمة عادلة، ولكن احتجاجه لم يحفل به وبإشارة من أوفيدياس انقض القوم على كوريولينا س يفتكون به حتى خر من طعناتهم صريعاً.

وكذلك مات الرجل الشجاع والمحارب الجريء، والجندي المغوار على اختيال فيه وزهو كاذب بسمو قومه وعلو طبقته.

مات الرجل الذي لم يكن عنده من الحيل والمكر واللؤم.. وسائر الصفات المذمومة التي اتصف بها أعداؤه الذين احتالوا على موته.

ولكن كبرياءه كانت هي في الأصل التي سوأت حظه وحطمت مصيره.

مهزلة الأخطاء

حدث أن قام نزاع بين سراقوسة في صقلية، وايفيسوس في آسيا الصغرى. فحمل الدولة الثانية على سن قانون يقتضي كل تاجر يدخل بلادها قدرا كبيرا من المال كرهينة أو يعاقب بالإعدام، ولذلك حين وجد قوم ايفيسوس في مدينتهم تاجرا كبير السن من أهل سراقوسة يدعى "ايجيون" استاقوه إلى حضرة الدوق مطالبين بأن يدفع الرهينة أو يفقد الحياة.

ولم يكن ايجيون يملك مالا، أو كان معه القليل النزر منه، فحكم عليه الدوق طبقا للقانون بالإعدام وسأله عن الباعث الذي حمله على التهور في دخول المدينة. فأنشأ ايجيون يقص عليه القصة الحزينة التالية التي جرت له في حياته.

قال: كان مولدي في سراقوسة، واشتغلت بالتجارة حين شببت عن الطوق وحسنت في التجارة حالي، ولازمني التوفيق فتزوجت وهنأني الزواج، ولكن اتفق لي أن شخصت إلى مدينة نائية تدعى "ابيداموم" لبعض شأني، فاحتجزني عملي فيها أكثر من ستة أشهر، ولما لم أطق صبرا على فراق زوجتي أطول من هذا أمدا، بعثت إليها استقدمها لتوافيني. فما لبثت عقب مقدمها أن وضعت غلامين توأمين كان تمام الشبه بينهما لا يدع أحدا يميز بينهما أو يفرق أخا من أخيه.

وكان عجبا يومئذ أن امرأة رقيقة الحال كانت تنزل بالخان ذاته وضعت كذلك توأمين كلاهما أشبه بأخيه وعجز أبواهما من الفاقة أن يكفلاهما، على حين كنت أنا الموفق الحسن الحال، فخطر لي أنه يحسن بي أن أربيهما بمثابة خادمين لولدي فاشتريتهما من أبويهما.

وحنت زوجتي بعد فترة طويلة من الزمن قضيناها عن بلادنا نازحين، إلى العودة إلى سراقوسة فأجبت سؤلها وأطفأت حنينها.

ومن ذلك الحين بدأت همومنا، وأدبر الحظ عنا، فقد هبت على سفينتنا عاصفة عاتية وكادت تذهب في اليم مغرقة فاجتمع ملاحوها في زورق لها وحاولوا بالمجاديف بلوغ الساحل، وخلفونا نحن الركاب المساكين على ظهرها فلم أدر كيف السبيل إلى النجاة بزوجي الباكية والولدان الصغار، ولكني لجأت أخيرا إلى ربط زوجتي والغلامين اللذين هما أسبق من الآخرين في لحظة الميلاد إلى سارية في السفينة وأحكمت الرباط، وربطتني أنا والغلامين الأصغرين في أخرى، وقلت مناجيا الخاطر إذا غرقت السفينة في جوف أليم ظلت هاتان الساريتان على صفحته طافيتين وحمت المشدودين إليهما من الغرق، وقد تمر بهم سفينة فتلتقطهم.

وكان ما توقعت فقد ألقت العاصفة بسفينتنا فوق صخرة، فهشمتها فأحالتها قطعا متفرقة، بينما مضت الساريتان في البحر سربا وهما تحملاننا. ولكنهما ما لبثتا أن تفرقتا فلم أستطع مد يد المعونة لزوجي والولدين.

ولشد ما سرى عني حين لمحهم قارب صيد أحسبه قادما من كورنث فاحتملهم أصحابه كما بدا لي الأمر من بعيد. ولكنهم لم يعودوا يبصروننا

ولعلهم ظنوا أننا قد ذهبنا في المغرقين. وما لبثت سفينة أخرى أن أدركتنا وأقبل نوتيتها علينا فنجوا بنا من أليم وأحسنوا إلينا وردونا إلى وطننا في سراقوسة سالمين.

ومن ذلك العهد إلى الآن لا أعلم ماذا صنع الله بزوجتي وغلامي والغلام الآخر من المرأة التي كانت تساكننا في الخان.

على أنني وإن كنت قد فقدت زوجتي وأحد الغلامين، فقد بقي لي غلامي الآخر، والغلام الآخر الذي جعلته له تابعا، وأقام غلامي معي في سراقوسة حتى أدرك شأو الرجال، ولكن لم نكن ننقطع عن التفكير في أولئك الأعزاء الذين فقدناهم وظلت الحسرات في نفوسنا عليهم باقية، فانتوى غلامي أخيرا أن يخلفني في المدينة ويذهب هو يلتمسهم في رحاب الأرض وأرجائها.

وأذعنت له على كره مني إلى رجائه وتوسلاته فسافر هو وخادمه لتنفيذ هذه المهمة، ولكن وا أسفي على أنني أذنت له في الرحيل. فقد انقضت اليوم سبع سنين على آخر عهد غابه.

ولما لم يعد بعد السنتين الأوليين، خرجت أنا كذلك من سراقوسة لأبحث عن الغائبين. ولكن عبثا حاولت العثور عليهم، وإن كنت قد جبت الأرض شرقا ومغربا، بل لقد خاطرت بنفسي وجئت إلى هذا الموضع للتفتيش عنهم علما بأني إذا لم أجدهم في هذه المدينة، استرحت وشيكا من الحياة ذلك بأني أموت سعيدا لو قد عرفت فقط أن زوجتي والولدين لا يزالون في الأحياء وأمهم بخير وعافية.

وتأثر الدوق من سماع هذه القصة المحزنة، كما كان منتظرا، ولكنه مع ذلك لم يشأ العفو عن الشيخ. لما فيه من تحدي القانون.. وإنما بدلا من الحكم عليه في الحال بالإعدام أتاحه يوما واحدا ليكون فيه مطلق السراح. فربما استطاع أن يلتمس أو يستعير من المال ما يكفي لدفع الرهينة المطلوبة.

ولكن ايجيون لم ير في هذه المهلة خيرا كثيرا لأنه لم يكن يعرف في ايفيسوس أحدا، أو تصور الأمر كذلك، وكان أهل المدينة لقوم سراقوسة كارهين فلا يحتمل أن بتمكن من اقتراض المال المطلوب فضلا عن أن الحياة لم تكن تحوي في ناظريه غير الأحزان. وما درى الشيخ الحزين أنه قد قدر له في ذلك اليوم بالذات أن يجد في المدينة ولديه اللذين قضى الدهر الطوال عنهما باحثا.

وكان التوأمان ولدا ايجيون كما تذكر أتم ما يكونان تماثلا وتشابها قد أطلق عليهما اسم واحد فدعيا "انتيفولاس"، كما سمى الغلامان الآخران اللذان يخدمانهما باسم مشترك بينهما وهو "دروميو".

في ذلك اليوم بالذات كان الغلمان التوائم الأربعة في ايفيوس وهم التوأمان (انتيفولاس)، والتوأمان (دروميون) فضلا عن أبيهم (ايجيون) وهو لا يعلم من أمرهم شيئا، كما أن انتيفولاس الذي أقام معه في سراقوسة كان في صباح ذلك اليوم بالذات قد نزل في ايفيسوس من السفينة التي ألقت مراسيها في المرفأ، وكان له صديق لحسن الحظ فنبهه إلى نص القانون بشأن تجار سراقوسة ونبأه بأن تاجرا كبيرا من شيوخ بلده قد حكم عليه في ذلك

اليوم ذاته بالإعدام، فرأى أنتيفولاس السراقوسي أن من الحكمة أن يزعم أنه تاجر من ابيداموم.

أما أنتيفولاس الآخر، وهو ابن ايجيون الأكبر. فلم يكن جديدا على مدينة ايفيسوس. فقد أقام بها من عشرين سنة مضت. وأثرى فيها ووجد التوفيق له قرينا. وكان قد نسي من زمن طويل أباه. إن كان من قبل قد تذكره يوما أو جرى أمره في خاطره. فقد فارقه. وهو في طفولته. لا تعي ذاكرته يومئذ شيئا.

وما كان لأمه كذلك ذاكرا، حين كان في السفينة مربوطا معها هو الوليد ودروميو في السارية. وحي أنقذهم الصيادون كما تذكر مما أسلفناه عليك.

وأخذ الصيادون الغلامين من الأم فباعوهما لمحارب مشهور كان بالمصادفة عما للدوق حاكم ايفيسوسي وخدم الحظ الغلام انتيفولاس هذا في المدينة فأحس الدوق ميلا إليه وعينه ضابطا في جيشه فنشأ جنديا شجاعا باسلا ولزمه التوفيق مرة أخرى فكان له فضل إنقاذ حياة الدوق في بعض معاركه وأراد هذا أن يجزيه على فضله وحسن بلائه فعمل على تزويجه بغادة حسناء في المدينة تدعى "ادريانة" وكان تابعه دروميو لا يزال في خدمته.. ولم يكن يعرف عن بقية العشيرة شيئا. وما درى أن في المدينة التوأم أخاه لأمه انتيفولاس السراقوسي، والتوأم الآخ "دروميو".

ولما كان انتيفولاس السراقوس غريبا عن المدينة. بعث بغلامه دروميو إلى الخان الذي سينزل فيه وقد حمل الغلام حقيبة ماله. وانطلق هو وحده

في المدينة يشاهد معالمها. وفيما كان سائرا يطوف البلد على غير هدى إذ سبح به الخاطر في أودية التفكير. وانتابه الحزن لوحدته.. إذ جعل كل تلك السنين الماضية يجوب البلاد. متنقلا من بلد لآخر يبحث عن أمه.. الغائبة ويفتقد أخاه الذي نأى.

وحانت منه وهو سائر في المدينة التفاتة فتولته الدهشة أن رأى من خاله لأول وهلة درروميو غلامه مقبلا نحوه. عائدا من الخان إليه ولكن الذي رآه لم يكن في الحقيقة الأخ التوأم لدروميو تابعه وقد جاء الساعة من دار انتيفولاس الآخر ليدعو مولاه إلى العودة إلى داره لوجبة الغداء.

وغلط دروميو الايفيسوسي كذلك وتوهم أنه قد رأى مولاه وما هو في الحق به. وذهب يفهمه إلى أن زوجه ترتقب أوبته إلى البيت. لأنه قد تأخر في الرجوع.

وقد بادره قائلا: اللحم قد برد. وأنت إلى البيت لم تعد. وما احتجزك عن بينك إلا لأنك لا تجد شهوة إلى طعامك وما فقدت إلى الطعام شهوتك إلا لأنك تناولت فطورك. وانطلق على هذه الصورة المجلجلة المتدحرجة كالعجلة في حديثه، مازجا بين الجد والمزاح هكذا، إذ كان مولاه يحب منه مجانته، ويستروح إلى دعابته.

ولاشك في أن انتيفولاس هذا الذي كان يخاطبه، والذي لم يكن له من زوج في المدينة ولا بيت، أحس من هذا الخطاب الهازل العابث استياء، وشعر من هذا المجون بارتباك ودهشة، فأجاب قائلا: أن هذا المجون في غير موضعه، ولا الحين حينه، وإنما خبرني أين تركت المال الذي أعطيتك؟!

ولم يكن دروميو هذا قد تلقى من سيده غير بضعة دراهم دفعها إلى صانع سروج "سروجي" ليصلح سرج مولاته، فلما نبأ سيده بذلك، ازداد غضبا على غضبه، وتلت ذلك أسئلة منه حادة اللهجة، وردود من الخادم ملتوية، فلم يكن من انتيفولاس السراقوسي إلا أن ضرب المسكين دروميو وأهوى عليه بكفيه فعدا إلى مولاته ادريانة زوجة انتيفولاس الآخر فنبأها بما جرى.

فغضبت أدريانة كما هو المنتظر، من الخادم دروميو، لأنه لم يعد بزوجها للمرة الثالثة إلى البيت، ومن زوجها لأسلوبه الغريب المستهجن في الجواب عن رسالتها وأنقذت وهي غضبي الخادم دروميو إليه مرة أخرى ليدعوه إليها، بل ذهبت هي بنفسها في النهاية لتفتقده.

أما انتيفولاس السراقوسي فقد قلق على حقيبة ماله، فأسرع عائدا إلى الخان، فوجد الخادم الحقيقي دروميو قد صدع بأمره، فراح يعتب عليه عبثه به، حين جاءه يدعوه إلى الغداء في بيت ليس له، وحين تجاهل نبأ المال الذي عهد به إليه، فظن دروميو أن سيده يمزح فأجاب عن المزاح بالمزاح، فأصابه ما أصاب دروميو الآخر من مولاه اتيفولاس على قحته وجرأته.

فلم يدر المسكين ما الذي أوجب ضربه، فرفع صوته بالاحتجاج. وإنهما لكذلك في حديث وهياج إذ فاجأهما أدريانة زوج انتيفولاس الآخر، وإن كان بالطبع قد حسبت هذا زوجها.

فانثنت تنهال عليه باللوم والعتاب على إهماله لها، وحين انصرف

عنها توهمت أنه لابد من أن يكون قد كف بغتة عن حبها، فأنشأت تطلب إليه أن يعاملها كما ينبغي للزوج أن يعامل زوجته، فلم يستطع أنتيفولاس أن يفهم من ملامتها وعتابها شيئا، فأنشأ يقول وهو في دهشة بالغة: "لست أعرفك وما أنا إلا غريب عن ايفيسوس لم ينقض على منحدري إليها غير ساعتين اثنتين".

ولكنها ما زالت تصر على أنه زوجها وأن دروميو هو خادم زوجها، وطفقت تسأله أن يذهب معها إلى البيت لتناول غداءه فيما وجد انتيفولاس في النهاية من سبيل آمن غير الاستجابة لإلحاحها والتسليم لتوسلاتها.

ورافقها إلى دارها، وذهب معهما دروميو خادمه وكان هذا في مثل حيرة مولاه وذهلته، وتناهت به الدهشة في البيت حين حيته الخادم في الدار وكانت زوجا لدروميو الآخر، تحية المرأة لبعلها!

وكان الزوج الحقيقي قد عاقه بعض شأن له عن المآب إلى بيته في مألوف موعده بينما ذهب دروميو خادمه الذي أنفذته أدريانة إليه يستعجله فدعا خطأ انتيفولاس الذي يشبهه، ولكنه حين ردته مولاته للمرة الثالثة ليبحث عن مولاه ويجيء به، وقع في هذه المرة عليه حقا فبادر هذا إلى الدار عائدا ليتناول طعامه ولم يكن بالطبع يعلم شيئا مما حدث في داره فعجب حين أبلغه دروميو خادمه أنه كان قد ذهب يلتمسه مرتين فما أصابه منه إلا الضرب والأذى. ولكنه لما وصل إلى الدارم متعبا حانقا وجد الباب موصدا، ولم يستطع لا هو ولا خادمه دخولا، لأن دروميو الآخر،

خادم انتيفولاس السراقوسي الذي كان في تلك اللحظة بتناول الطعام مع أدريانة، أمره بأن لا يدخل أحدا.

وكذلك وقف الزوج الحقيقي ورب البيت خارج بيته صائحا يطلب الدخول، مناديا أنه انتيفولاس ومن حقه أن يدخله، ودق الباب ونادى أهله فسخر الخدم والغلمان الذين في بيته منه وقالوا:

– إن سيدهم في البيت الساعة يأكل طعامه، وغلامه دروميو معه.

ولم يشأ أحد منهم أن يفتح الباب له ولا لخادمه، على فرط ما تصايحا وكثرة ما دقا الباب فما وسع الزوج في النهاية إلا أن ينصرف حانقا على زوجه أن أذنت لرجل سواه في مؤاكلتها وتركته هو خارج الدار منبوذا وحمت بابه في وجهه.

ولم تكن الأمور تجري داخل البيت هادئة. فلشد ما كانت حيرة انتيفولاس السراقوسي من أسلوب أدريانة في معاملته فقد اتخذتها قضية مسلما بها، وهي أنه زوجها، حتى لقد أحس في الواقع نفورا منها، واجتواء لها، ووجد أختها لوسيانا وكانت تقيم معها لطيفة أنيسة، فاستراح إلى حديثها.

وما أن تواتي له استدعاء خادمه دروميو حتى تسللا من البيت هاربين، وكان أول شخص لقيه في الطريق صائغ يدنو من البيت، وإذا هو يحييه ويقدم إليه سلسلة من ذهب إذ غلط الرجل في حسبانه انتيفولاس الآخر وكان هذا قد أوصاه باصطناع سلسلة ذهبية له، فلما سمعه ينكر

وصاته لم يتقبل إنكاره جدا وإنما دس السلسلة في يده وانطلق منصرفا وهو يقول أنه سيعود بعد لحظة ليقبض الثمن.

وعند ذلك خطر لانتيفولاس أن الخير كل الخير أن يرتحل من ايفيسوس وأن يعجل بتركها ما أمكنه، لأنه لا يدري ماذا عسى أن يقع له من الأحداث الغريبة بعد الذي جرى، فأنفذ خادمه "دروميو" ليعد له مكانا في أول سفينة تزمع السفر.

* * *

ولنعد الآن إلى انتيفولاس الآخر، زوج أدريانة الحقيقي. فقد التقى في الطريق بالصائغ الذي أعطى سميه وشبيهه السلسلة الذهبية، وكان هذا الصائغ التعس مدينا لزميل له من التجار بقدر من المال وقد عجز عن السداد حتى يتلقى ثمن السلسلة، فلما لقيه انتيفولاس في الطريق، وجد شرطيا قد قبض عليه بسبب شكوى التاجر صاحب الدين عليه فاتجه الصائغ بطبيعة الحال إلى انتيفولاس يسأله ثمن السلسلة ليسدد به دينه ولكن انتيفولاس بالطبع أنكر أخذها.. غير أن الصائغ أصر على أنه قد أعطاه إياها فما كان من الشرطي إلا أن قبض عليهما معا. الصائغ لأنه لم يدفع الدين الذي عليه للتاجر واتنيقولاس لأنه لم يدفع ما في ذمته للصائغ. واستاقهما إلى الحبس وكان دروميو غلام انتيفولاس الآخر عائدا في تلك اللحظة من الميناء فدلف نحوهم ورواح يخاطب انتيفولاس المعتقل يحسبه سيده منبئا إياه أن السفينة توشك أن تقلع من المرفأ. ولكنه لم يتلق من جواب غير الأمر له بالذهاب رأسا إلى أدريانة وإحضار قدر من المال يكفي لافتكاكه من معتقله للدين الذي عليه.

ففعل دروميو ما أمر أن يفعل وأعطته أدريانة المال الذي عليه، وإن كانت قد عجبت أن سمعت بأن زوجها قد قبض عليه لدين في ذمته.

ولكن المال لم يصل إلى انتيفولاس الذي كان مطلوبا له وإنما وصل إلى انتيفولاس السراقوسي إذ لقيه "دروميو" أول من لقي عند رجوعه فسلمه المال الذي كان يحمله فبهت انتيفولاس هذا وعجب أشد العجب، ولكن أحداثا وأمورا عجيبة من هذا القبيل ونحوه قد ترادفت عليه في ذلك اليوم حتى لقد بدأ يحسب أنه قد مسه سحر ويخاله في حلم.

ورأى الناس يحيونه في الطريق كأنه بعض صحابهم وآخرين جعلوا يتحدثون إليه، أو يعرضون عليه مالا، أو يدعونه لزيارتهم، أو يشكرون له صنائع ماضية أسداها إليهم. بل أن حائك ثياب دعاه إلى حانوته فأخذ مقاييس جسمه ليصطنع له "سترة" من حرير.

وزاده حديث دروميو ذهولا على ذهوله، إذ مضى ينبئه بقصة القبض عليه وتهديده بالسجن إذا هو لم يدفع المال المطلوب وما إلى هذا كله من أحاديث.

وأدهى من ذلك دلفت نحوه امرأته في المدينة فذكرته بأنها قد تغدت معه في ذلك اليوم وأنه وعدها عقدا وأمسكت به لا تريد أن تتركه حتى يبر بما وعد، فهاج أخيرا هائجه. وثارت ثائرته. وأنكر معرفته بتاتا بها وبالعقد الذي تتحدث عنه وأنحى عليها بحداد الكلم. وقوارص الألفاظ وانفلت مسرعا لا يلوي على شيء.

ولاشك في أنها قد غلطت هي كذلك فيه. وحسبته أخاه. فغضبت من إنكاره حقوقها على تلك الصورة، وعولت على الذهاب إلى داره وأنباء أدريانة بأنه سرقها عقدا لها وراح يسلك مسلك المجنون ذهب لبه.

وقد فعلت..

وفيما كانت تقص على أدريانة القصة جاء انتيفولاس الزوج الحقيقي غاضبا من أنه لم يتلق المال الذي طلبه لفكاكه من الحبس فلم يجد بدا من أن يأتي بنفسه لأخذه.

وجاء معه الشرطي الذي اعتقله ليذهب به إلى السجن إن هو لم يدفع. فلم يبق في نفس أدريانة عندئذ شك في أن زوجها قد ذهب عنه لبه إذ بجانب قصة المرأة التي روتها عنه، كان تصرفه الغريب على الطعام، وادعاؤه -كما توهمت- أنه لا يعرفها وأنه لم يكن لها في يوم ما زوجا.

ولما صرفت الشرطي بالمال الذي جاء من أجله، دعت إليها خدمها ليشدوا وثاق زوجها ويلقوه في حجرة مظلمة، كما كانوا يفعلون بالمجانين في تلك الأيام، وبعثت في طلب طبيبه ليفحصه ويرد إليه عقله.

وهاج انتيفولاس التعس بطبيعة الحال وتناهى غضبه من هذه المعاملة الخشنة التي عومل بها، ولكن كلما ازداد غضبا وهياجا ردوا ازدياد غضبه إلى الجنون، وضعفت عندهم الرغبة في حل وثاقه وإطلاق سراحه.

ولما رأوا "دروميو" يتحيز لمولاه ويؤكد صحة أقواله كتفوه هو كذلك وطرحوه أرضا. ولم تلبث أدريانة أن تلقت من أحدهم نبأ بأن زوجها

وخادمه قد شوهدا في الشارع، وما كان ذلك في الواقع إلا انتيفولاس الآخر وغلامه، فظنت أدريانة أن زوجها قد انفلت من وثاقه فجرت هي وخدمها إلى الطريق تطلبه ولكن انتيفولاس هذا وغلامه جردا سيفيهما مهددين القوم بالموت أن هم اقتربوا منهما فلم يجسر أحد بادي الرأي أن يتقدم نحوهما.

غير أن الصائغ الذي اصطنع السلسلة الذهبية لانتيفولاس الافيسوسي مر عليهم عرضا في تلك اللحظة ومعه التاجر الذي يطالبه بما عليه ولعلك ذاكر أن السلسلة وصلت خطأ إلى يد انتيفولاس السراقوسي وكان محيطا بها عنقه فبصر بها الصائغ فتقدم مسرعا إليه وندد به كيف ينكر أنه قد تسلمها منه وهو الساعة متقلدها، وكاد القوم يشتجرون على السلسلة لولا أن طلبت أدريانة إلى التاجر وزميله أن لا يمسا زوجها لأن المسكين قد فقد عقله، وإنما يصح أن يشدا وثاقه هو وغلامه ويرداه إلى البيت.

ولكن لحسن حظ أنتيفولاس وخادمه، كان الموضع الذي اختلف القوم فيه بقرب دير وكانت أبواب الدير مفتوحة وهو مكان مقدس ألف يومئذ الذين في ضيق من أمرهم أن يلجأوا إليه محتمين.

وإلى بابه ركض الرجل وخادمه فخرجت لهما الراهبة الكريمة تسأل ما خطبهما. ولما سمعت من أدريانة بيانها، وكيف كانت لا تفتأ تلوم زوجها على إهماله لشأنها ظنت أن ما بالزوج من دخل يرجع إلى حاجتها وكثرة تعقبها لأغلاطه ومشاكستها له، فأبت أن تسلمها إياه قائلة أنها ستعمل على

مداواته حتى تشفيه، وآوت إليها انتيفولاس وخادمه وأوصدت الأبواب في وجه الآخرين.

وهكذا بينما كان الزوج الحقيقي وخادمه دروميو، في الدار محتبسين، كان انتيفولاس الآخر الذي حسبته أدريانة زوجها، ودروميو شبيه غلامه في الدير آمنين.

ولا مناص لنا الآن عن الرجوع إلى بداية هذه القصة، وإلى الشيخ ايجيون والد التوأمين وما كان من أمره.وأنت قد علمت آنفا أن الدوق كان قد حكم عليه بالإعدام إذا هو لم يظفر بالمال ليدفع فديته بعد مهلة اليوم. وقد انقضت المهلة فسيق الشيخ المسكين إلى خارج المدينة ليلقي منيته.

وجاء الملك بنفسه كذلك لعله يقف التنفيذ إذا ما ظهر في اللحظة الأخيرة من يدفع عن الشيخ فديته.

وكانت ساحة الإعدام غير بعيدة من الدير.

فلما اقترب الدوق من الموضع دلفت أدريانة نحوه تطلب إنصافا لها من الراهبة إذ رفضت رغم ضراعاتها لها وتوسلاتها أن تسلمها زوجها المجنون فاستمع زوجها المجنون فاستمع الدوق لظلامتها حنانا من أدنه وهم بأن يبعث في طلب الراهبة ليسمع ما قولها من قضية الشاكية لولا أن جاء أحد خدم أدريانة يعدو بأنباء جديدة. وهي أن الزوج والخادم دروميو قد تمكنا من الافتكاك من قيدهما. وأن الزوج قد ضرب الطبيب. وأمر باحتجازه وطلب في غضب أن يذهب رسول إلى زوجته ليعود بها حتى يسألها ما

الذي غرها به حتى تعامله تلك المعاملة! فانثنت أدريانة إلى الخادم قائلة أنها تعلم أن زوجها في الدير. ولكن ما كادت تفوه بهذه الكلمات حتى ارتفع لعينيها في تلك اللحظة شبح زوجها انتيفولاس وقد جاء بنفسه مصطحبا دروميو خادمه فبهتت من مشهده حيالها وانعقد لسانها فلم تستطع قولا.

وكان أول شيء فعله هو أن توجه بالقول إلى الدوق يستعديه على زوجته.

وبينما كان واقفا ثم يتحدث ويشرح ظلامته، إذ ظل الشيخ ايجيون يرمقه ببصره وقد راح يناجي خاطره قائلا: ها هو ذا ولدي العزيز انتيفولاس الذي فارقني من سبع سنوات ليفتقد أمه ويبحث عن أخيه.. ولكن يا عجبا.. لست أدري لماذا لم يتبين أباه؟!

وأقبل عليه يحييه ودمع الفرح في عينيه ولكن انتيفولاس أنكر معرفته به بتاتا.. ولا عجب، فإنه في الحق كما علمت لم يكن سوى انتيفولاس الذي فارقه في السفينة يوم العاصفة وكان في المهد صبيا.

غير أن الشيخ المسكين وقد ظنه ولده الآخر.. لم يصدق مسمعه وعجب أشد العجب من أن ينسى فتى أباه من فرقته سبعة أعوام فقط. فعاد يتوسل إليه ودموع الغم في هذه المرة تتخير في مآقيه ويناشده إلا ما تبين أباه.

ولكن هذه الألغاز والمعميات والأغلاط تدنو أخيرا من نهايتها إذ تنفتح أبواب الدير وتخرج الراهبة وقد جاء في أثرها انتيفولاس الآخر وخادمه درواميو ولأول مرة يجتمع التوأمان انتيفولاس، والتوأمان درواميو والأب الشيخ، في صعيد واحد.

وعندئذ تذكر الدوق القصة التي قصها عليه ايجيون وأمر التوائم الأربعة، فما لبثت القصة المعقدة المتشابكة التي سمعها منذ لحظة أن وضحت له وعرف انتيفولاس السراقوسي أباه ففرح بلقائه فرحا بالغا، وجعل ايجبون ينقل عينيه من وجه هذا إلى وجه ذاك وقد أدرك أنه قد وجد ولديه بعد طوال فراق.

ولكن كان أسعد الحوادث كلها ما تبين بعد ذلك من أن تلك الراهبة لم تكن سوى زوج ايجبيون التي فقدها، والتي ضربت النوى بينها وبين زوجها وولديها عقب غرق السفينة.فأنشأت تقص على القوم كيف قدمت إلى ايفيسوس في حال حداد على زوجها ولولديها ثاكلة فدخلت الدير لتعيش راهبة، وما زالت فيه حتى أصبحت كبيرته.

وهكذا جمع الله أشتات هذه الأسرة جمعة مسعدة، وانفكت الخيوط الأخرى في عقدة هذه القصة بالطبع فردت السلسلة الذهبية إلى مشتريها الحقيقي وقبض الصائغ والتاجر مالهما وظفرت أدريانة ببعلها عاقلا سعيدا وكان يظن من قبل أن به دخلا أو غريبا ليست له بالدار صلة.

وكان آخر شيء تم في الإفراج عن ايجبون وكان كما تذكر قد حكم عليه بالإعدام إذ تقدم بالطبع انتيفولاس الفتى في الحال فدفع الفدية عنه.

ولكن الدوق عفا عن ايجبون وأبى أن يأخذ مالا وتزوج التوأم الأصغر انتيفولاس السراقوسي يما بعد صاحبة لأدريانة.

وعاشوا جميعا في ظلال السعادة والرخاء.

بيريكليس أمير "تير"

كان بيركليس أمير "تير" في زيارة لاتنايوكاس إمبراطور الإغريق العظيم السلطان فاكتشف عرضا سر جريمة خفية كان اتنايوكاس اقترفها من عهد بعيد. وكان بيريكليس هو وحده الذي عرف السر فخشى اتنايوكاس منه أن يعلنه فبادر إلى الأمر بقتله.

وكانت تير على منال من سلطان هذا الإمبراطور الشرير وسطوته، فأوجس بيريكليس خيفة من أن تجلب كراهية الإمبراطور له، غضبه ونقمته على المدينة، فلعتزم أن يذهب إلى المنفى بنفسه طائعا راضيا، وهو قائل في نجواه لخاطره: "بهذا أنقذ المدينة وأنقذ نفسي".

ومن ثم عهد بالحكم إلى وزيره الأمير هليكانوس وأبحر من "تير" في زي بعض السادة، منتويا أن يعودحين يزيل الموت أو الحظ سبب الخطر.

وفي ذلك الحين وقع قحط أليم أصاب إقليم (طرسوس) وكان من بعض أملاك "أنيتوكاس" وكان "بيريكليس" قد جعل أول منزل له في سياحته، بذلك الثغر وكان قد حمل معه ميرة وفيرة فاستطاع بها أن يخفف من بلاء المجاعة عن المدينة الساغبة.

وجاءه حاكمها (كليون) بالنيابة عنها يرحب به من صميم قلبه ويبدي له جميل العرفان لمعونته. غير أن (بيريكليس) لم يلبث في "طرسوس" أن تلقي رسالة وصلت من (تير) تنبئه بأن (أتنيوكاس) قد ترامى إليه نبأ

مقره وقد يبعث من قبله برجاله إلى طرسوس لقتله. فاعتزم أن يركب البحر مرة أخرى فذلك خير من أن يخاطر بحياته وحياة أهل (طرسوس) إذا هو لبث بين ظهرانيهم. ولكن سفينته بعد أيام قليلة من مبتدأ رحلتها غرقت بريح عاصف فعمل وحده على بلوغ الشاطئ سبحا طويلا.

وألقى به أليم على شاطئ غريب فوجد عنده صيادين في شغل برفع شباكهم فأحسنوا إليه وأعطوه ثيابا جافة ليرتديها وحدثوه بأخبار البلاد فعلم منهم أن مدينة "ينتابوليس" لا تبعد أكثر من مسيرة نصف يوم من موضعهم وأن على المدينة أميرا يدعى "سيمونيدس" راحت ألسنة الناس جميعا تلهج بحمده لخيره وإحسانه ووادع حكمه.

ونبأه الصيادون كذلك أن للأميرة ابنة مليحة سيقام الاحتفال بعيد مولدها غداة اليوم التالي وأن الأمراء والملوك يتوافدون من جميع الأرجاء لحضوره ويتنافسون في مبالغ حذقهم لافانين المجالدة في سبيل الفور بالحب عندها.

وفيما كان الصيادون منهمكين في صيدهم إذ وجد صياد منهم شيئا ثقيلا احتبل في شبكته فلما رفعه تبين أنه عدة كاملة من السلاح فجاء القوم إلى (بيريكليس) يحملونها. وما كان أشد فرحه إذ وجد أنها عدته وكان قد أصابها هدية غالية من أبيه الراحل إذ كان يرجو حين أهداها إليه أن تكون عونا لولده كما أعانته من قبل وحسنت نصيرا.

وذهب "بيريكليس" يقول لنفسه: "أن استرداد هذه العدة لخير عوضا، وأحسن مردا. من نكبة غرق سفينتي، ففي وسعي الآن أن أساهم في حفلة الغد وأمتحن حظي فيها، وقسمتي".

وأمده الصيادون بثياب أخرى صالحة وجواد كريم لم يكن ثمة خير منه. وركب يريد مدينة "ينتابوليس"، وفي غداة اليوم التالي أخذ الفوارس المتبارون يمرون واحد أثر واحد وفقا لأصول الحفلة ونظامها، أمام الأمير "سيمونيدس" "وثايسا" ابنته فجعلت الأميرة الشارات على الدروع بدورها حتى إذا مر القوم جميعا. إذا بفارس قد جاء في المؤخرة. وهو في عدة من سلاح صدئة تحمل شعارا من غصن ذابل لم يبق منه ناضرا إلا رأسه وعلى الدرع قد نقشت عليه هذه الكلمات: (بهذا الأمل أحيا) فما لبثت حقارة مظهره أن جعلت الفوارس الآخرين يزدرونه ويستخفون بشأنه، ولكنهم كانوا في سخريتهم منه ظالمين له لأنه ما لبث في المبارزة والمسابقة وأفانين الضرب والطعن أن بزهم جميعا وخرج هو المنتصر وبذلك فاز بأكليل النصر وتلقي التفاتا خاصا ورعاية من الأمير وفتاته.

وكانت العادة في هذه الحفلات أن الغادة التي تقام لتكريمها وهي الأمير (ثايسا) هي التي تتوج المنتصر بأكليل انتصاره.

وكذلك تقدمت الأميرة إلى هذا الفارس الغريب تحمل الإكليل فتوجته به وأبدت نحوه التفاتا خاصا واحتراما. ولما سألته عن شأنه ومن أي البلاد جاء رأي الحزم والحكمة في الجواب على سؤالها بقوله أنه من سادات من أهل "تير" إذ خشي أن يبوح بحقيقة أمره وخطره فيبلغ نبأ وجوده في "ينتابوليس" سمع "أتنايوكاس".

وأقام أياما في المدينة ضيفا على الأمير، فما عتم أن وقع في حب الأميرة الحسناء.

غير أنه لما كان قد ادعى أنه لم يكن سوى سيد من عرض الشعب، وما هو بالحسيب أخي المحتد، راح بادئ الرأي يخفي عنها هواه، ولكن حين أبدت أنها تبادله الحب، وأن أحب شيء إلى نفسها أن يكون لها زوجا وافق الأمير "سيمونيدس" على رغبتها فتم الزواج في الحين المناسب.

وقبل أن ينقضي عام واحد على زواجها، جاءت الأنباء تترى بأن "أتنايوكاس" عاهل الإغريق قضى نحبه وأن شعب "تير" يلحون على الوزير "هليكانوس" في تولي العرش، بعد أن ظل شاغرا لطول غياب "بيريكليس" عن وطنه، ولكن (هليكانوس) فيما جاءت به الأخبار كره أن يفعل ما دام ثمة أمل في رجعة (بيريكليس) وأنه لذلك أنقذ رسلا يبحثون عنه ويلتمسون مكانه.

فلم يبق بعد ذلك سبب يحمل (بيريكليس) على إخفاء حقيقة أمره، فنبأهم نبأه، وأعلنهم أن الوقت قد حان ليشد الرحال إلى (تير).

وسر (سيمونيوس) كثيرا حين علم أن أميرا في مثل شهرة (بيريكليس) ومطار صيته قد أصبح له نسيبا، وإن كان قد أحزنه أنه عما قليل يفارقه، وأسف بخاصة على أنه مفارق حتما ابنته كذلك. إذ كانت ترغب في مرافقة زوجها.

ولقد حاول أن يثنيها عن هذه الرحلة الخطرة مذكرا إياها بأنها لن تلبث أن تضع حملها، ولكن (ثايسا) أصرت على أن ترافق زوجها إلى (تير).

وعاجلت الرحلة كارثة إذ هب على السفينة إعصار رهيب. ووضعت (ثايسا) حملها وسط قصف الإعصار، وشدته، وزفيفه، وبسبب الاضطراب الذي ساد السفينة خلاله، وفرط ما انتاب الأميرة من خوف، وقلق ورعب. وغشيتها عند الوضع إغماءة عميقة حتى لكأنما قد سكنت أنفاسها.

ولما احتملت المرضعة المولودة إلى (بيريكليس) والنبأ الأليم بأن زوجه قد فارقت الحياة فجأة، تملكه الغم، وحطمه الأسى.

وظل الإعصار على أشده! واعتقد الملاحون في منازع أوهامهم وحادث خرافاتهم أن العاتية لن تخف شدتها ما دام في السفينة رفات ميت، فجاءوا يطلبون إلى (بيريكليس) أن يأذن في إلقاء جثة زوجه إلى الأمواج، فاضطر إلى الاذعان لما طلبوا، ولكنه أصر على أن تقام لها الجنازة الواجبة.

وأنشأ يضع جثمان مليكته في صندوق للملاحين في السفينة، ونثر الزهر والعطر فوق بدنها وحلاها بجواهر، وجملها بزينة. وعلق بالصندوق رقعة كتب فيها اسمها. ورجاء إلى من يتفق له العثور على الصندوق وفتحه أن يدفنا الدفنة اللائقة. وفيما كانت السفينة غير بعيدة عن ساحل "اينيسوس" أنزل الملاحون الصندوق في أليم.

وذهب الملاحون بعد ذلك يتجهون بالسفينة صوب "طرسوس" لرغبة "بيريكليس" وكانوا يريدون سواحل "تير" وهي أبعد من "طرسوس" موضعا. وما أراد "بيريكليس" من ذلك إلا أن يعهد بالمولود إلى صاحبه "كليون" ويشخص هو إلى "تير" إذ خشي على المولود أن يموت إذا ظل في البحر طويلا.

وفي اليوم التالي لهبوب الإعصار كان سيد من أهل "ايفيسوس" يدعى "سريمون" يسير حذاء الشاطئ. مشاهدا ما فعل الإعصار، وكان "سريمون" هذا معروفا في المدينة، محبوبا من أهلها لكثرة الإحسان، وإيتاء الخير، ولبراعته في الطب، وأنه لواقف على شرف من البحر، إذ جاءه غلمانه يحملون صندوقا رحيبا ضخما، قائلين أن الأمواج قذفته بالساحل، فأمرهم في الحال بفتحه. ولشد ما كانت دهشته أن رأى في جوفه جثمان غادة حسنا في ريعان الشباب قد تناثرت الأزاهر حولها، وحليت بجواهر وزينة، وحصل على الرقعة المكتوبة فقرأ فيها ما يلي:

"أريد بهذا أن تعلموا، أن قدر لهذا التابوت أن يبلغ الثرى أنني أنا الملك "بيريكليس" قد فقدت هذه الملكة التي تعدل عالمنا كله وما حوى، فمن يجدها، فليلحدها.

لقد كانت ابنة ملك. وبجانب هذا الكنز له أجرا فلتجزه الآلهة على إحسانه خيرا".

وهكذا أدرك (سريمون) من تكون الغادة التي وسدت التابوت، ولكنه حين ألقى بصره على وجهها لاحظ صباحة معارفه وطلاوة معالمه فأخذ يشك في أن تكون ميتة، فأوقد نارا وبعث غلمانه في طلب أدويته وعقاقيره، وأمر بأن تعزف الموسيقى. وبفضل الدفء. والعقاقير بدأت (ثايسا) تتحرك أخيرا في مرقدها وتثوب إلى رشدها، ثم فتحت فمها وأنشأت تسأل: "أين أنا، وأين زوجي يا ترى، وأي عالم هذا الذي أرى؟".

فأوحى "سريمون" إلى الخدم أن يحملوها برفق إلى أقرب دار من الموضع وما زال يرعاها، ويشرف على استرداد عافيتها، لأنها لم تكن في الواقع قضت، وإنما هبطت في غشية رخية الأمد.

وأراها "سريمون" عقب ابلالها الرقعة التي تركها "بيريكليس" في الصندوق فتذكرت الأعصار ومرضها ولكنها لم تكن تدري أنها وضعت وليدة، وظنت أن الركب جميعا الذين كانوا في السفينة معها قد غرقوا.

وعرض "سريمون" عليها أن تكون كاهنة في معبد لديانا غير بعيد، ولما لم يبق لها من زوج ولا ولد تعيش لهما كما توهمت لم يسعها غير القبول.

أما "بيريكليس" فقد أقام عند صديقه القديم "كليون" فترة قصيرة من الزمن وهو في قلق ولهفة على المسير إلى "تير" عاجلا ليتقلد الحكم، مخافة أن يطول على الشعب أمد انتظاره فيعهد بالحكم إلى سواه.

وقبل إزماع الرحيل ترك وليدته التي سماها (مارينا) ومرضعتها (ليكوريدا) في ذمة (كليون) وزوجه (ديونيزا).

وفي (طرسوس) قضت الطفلة صباها في رعاية وخير، إذ اتخذها الملكان لهما ولدا، وأدباها. فأحسنا تأديبها. وكانت الصبية ذكية بارعة، فاشتهرت بعلمها، كما عرفت بجمالها وكرم خلقها.

غير أن فضائلها ومحاسنها كانت وبالا عليها، فإن ابنة (ويونيزا) ملاعبتها في الطفولة، وصاحبتها لها في سنها كانت دونها بكثير ذكاء وجمالا فدب في نفس أمها دبيب الغيرة، ونمت الغيرة على الأيام فاستحالت حقدا

وكرها، وانتوت التخلص منها، ولكنها أخفت نيتها هذه، إذ رأت مربيتها الوفية الأمينة ساهرة عليها، راعية.

ولكن المربية العجوز قضت نحبها بعد سنين فسنحت "لديونيزا" الفرصة المنشودة فاستأجرت خادما لها يدعى "ليونين" ليصحب "مارينا" في بعض الأحايين إلى الشاطئ للرياضة. واتفقت معه على أن يتحين لقتلها وإلقاء جثتها في اليم.

وكان الخادم لهذه الفعلة كارها ولكنه خشي غضب مولاته، ووعدها أنه عامل بأمرها. ففي ذات يوم وجدت "ديونيزا" الفتاة "مارينا" تنتحب على رحيل مربيتها العجوز فتظاهرت بالعطف عليها، واقترحت أن تخرج مع (ليونين) للرياضة على الساحل.

ففيما كانا سائرين أنشأت (مارينا) تقص على رفيقها في رياضتها قصة مولدها في يوم ريح عاصف، وتصف كيف جعل أبوها يشجع الملاحين على محاولة إنقاذ السفينة وكانت قد سمعت بذلك من المربية العجوز، ولكن (ليونين) قطع عليها فجأة حديثها وأمرها بغلظة أن تخر جاثية وأن تصلي لله آخر صلواتها.

وإنها لكذلك تحاول مقاومته، إذ ألقى جماعة من القرصان في تلك اللحظة مراسيهم بالساحل، ورأوا الصراع الدائر على أعينهم، فجروا نحوهما وانتزعوا الفتاة من قبضة (ليونين) واحتملوها إلى البحر معهم.

ولما ذهب عن "ليونين" العجب مما رأى حمد الذي جرى، إذ أنحى

عنه الجريمة التي كان موشكا أن يقترفا. وحال القدر بينه وبين أن يستحيل قائلا، وعول على أن ينبئ مولاته الملكة أنه قد نفذ أمرها.

أما الفتاة "مارينا" فقد فر القرصان بها إلى "ميتيلين" حيث باعوها بيع الرق لمن اشترى، وقضت في تلك المدينة ما شاء الله أن تقضي في عيش مليء بمناكد وغصص، ولكن ما لبثت فضائلها ومعارفها وجمالها أن استرعى الأبصار، فاكتسبت شهرة واسعة، ومالا وفيرا، إذ ذهبت تعلم الموسيقى وشغل الإبرة وغيرهما مما أوتيت منه علما.

وبلغت شهرتها مسامع "ليزيماكوس" حاكم "ميتيلين" فأحبها ورغب سرا في الزواج بها فإن مركزها في الحياة لم يكن يناسب الإعلان عن بنائه (زواجه) بها.

وكان (ليونين) قد نبأ مولاته (ديونيزا) أنه قتل مارينا (فأشاعت) هي أن الموت اخترمها، وأقامت حفلة حداد عليها.

وكان "بيريكليس" قد رحل عن "تير" بعد الفراغ من شأنه فيها وعاد إلى "طرسوس" ليسترد ابنته مصطحبا وزيره الأمين "هليكانس".

غير أنه لما وصل إلى "طرسوس" وعلم أن ابنته قضت نحبها غشيه من الغم والهم ما غشيه، فلم يطق في المدينة مقاما. وأبحر عائدا إلى وطنه ولبث في السفينة وهي تجري به في اليم محتجزا نفسه من فرط الهم والأسى.

وعرجت السفينة على ثغر "ميتلين" فجاء حاكمها "ليزيماكوس" في سفينة له إلى الساحل ليعلم من حملت السفينة.

ولما سمع من الوزير "هليكانس" بأمر "بيريكليس" والحزن الصامت الذي انتابه استأذن الوزير في الدخول عليه لعله يواسيه أو يخفف بعض لوعته. ولكن "بيريكليس" لم يحفل بسلامه ولم يجب عن تحيته. فخطر في خلد "ليزيماكوس" أن يستعين بالحسناء "مارينا" لما اشتهرت به من رقتها. ولطف مدخلها على النفوس الموجعة. ومبلغ مواساتها للقلوب المروعة. فبعث في طلبها بعد استئذان الوزير في مجيئها.

فلما أقبلت نبأها "ليزيماكوس" أن في السفينة أميرا عظيما غشيه حزن بالغ وألح عليه وجوم شديد وطلب إليها أن تعمل على شفائه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. فأجابت قائلة: "أني لباذلة آخر ما في براعتي وخبرتي لشفائه. ولكن على شرط أن لا يدنو من المريض أحد سواي، وخادمتي هذه".

ودخلت على "بيريكليس" معتزلة.

ولما كان الإنسان في حزنه وبلواه إذا سمع بحزين آخر أكبر منه مصابا وأجلد عليه صبرا، استحيا من الاستسلام لحزنه، أنشأت (مارينا) تحاول تنبيه (بيريكليس) من الوجوم الذي ألح عليه فذهبت تقص حياتها، رواية له كيف كانت وليدة أبوين في الملوك مكانهم، وكيف يبعث بقسوة في سوق الرق مرتخصة.

وفيما كانت ماضية في حديثها أحس (بيريكليس) الرثاء لها، وحرك صوتها إحساسا غريبا في نفسه. ولشد ما بهت وعجب حين سمع منها أن اسمها (مارينا) فبادرها في لهفة يسألها من أبوها.

وعند ذلك رأت (بيريكليس) يبكي إذ لم يعد يتمالك نفسه، أقبلت عليه تسأله: (يا سيدي الكريم علام بكاؤك؟ أحسبك تظنني محتالة كذوبا، فلا والآلهة ما أنا كذلك، ولكني ابنة الملك "بيريكليس" إن كان في الناس اليوم حيا).

ودعا بيريكليس إليه أتباعه كأنما أراد بذلك أن يستوثق من أنه سمع حقا وفي انفجارة من انفجارات العاطفة راح ينبئهم بهذه الأنباء السارة ويصيح بهم أن ها هي ذي "مارينا" ابنته ردت إليه. وأحدث التحول الفجائي من أعماق الحزن والغم إلى أوج الحنانة تأثيرا في نفسه ونهك قواه فهبط في وادي الكرى وظلت "مارينا" بجانبه.

ورأى فيما يرى النائم الآلهة ديانا معبودة "ايفيسوس" تأمره أن يذهب إلى معبدها ويقص أمام الهيكل قصته وما غمر حياته من رزء وبلاء ووعدته بأنه إذا فعل ما أرمته به ظفر بسعادة نادرة مخبأة له.

فاستيقظ من نومه منتعشا وانتوى أن يذهب إلى "ايفيسوس" راجلا ولبث في "ميتيلين" بضعة أيام ضيفا على حاكمها "ليزيماكوس" وعلم منه برغبته في الزواج "بمارينا" وكانت هي فيه راغبة فرضى قرانهما مشترطا عليهما أولا أن يصحباه إلى المعبد.

وإلى (ايفيسوس) ارتحلوا فزار (بيريكليس) رفقاءه في المعبد فتلقتهم فيه (ثايسا) في مسح الكاهنة وكان بين الحاضرين (سريمون) الطبيب الذي أنقذ حياتها ولكن (بيريكليس) لم يعرفها ولكن (ثايسا) عرفته من صوته من أول وهلة ولبثت ترقبه وهو يتحدث بفرح شديد. وفعل ما أمرته (ديانا) في

الحلم أن يفعل فقص قصته عند الهيكل وأصغت (ثايسا) إليه فلم يبق شك في نفسها أنه هو (بيريكليس).

فانثنت تناديه منتحية باكية: (أنت بيريكليس مليكي) وسقطت مغشيا عليها. ودار (بيريكليس) مبهوتا إلى (سريمون) يستفسره فأجابه أن التي يراها حياله ليست سوى زوجه. وهكذا اجتمع (بيركليس) بزوجه بعد طول بين ولقيا ابنتهما بعد أليم فراق.

يبق من القصة إلا أن تعرف مصير الغادرة (ديونيزيا) فقد علم أهل (طرسوس) بكيدها بقتل (مارينا) فثاروا عليها وأحرقوا القصر عقابا لها على جحودها وكفرانها فالتهمتها النيران وبئس المصير.

الفهرس